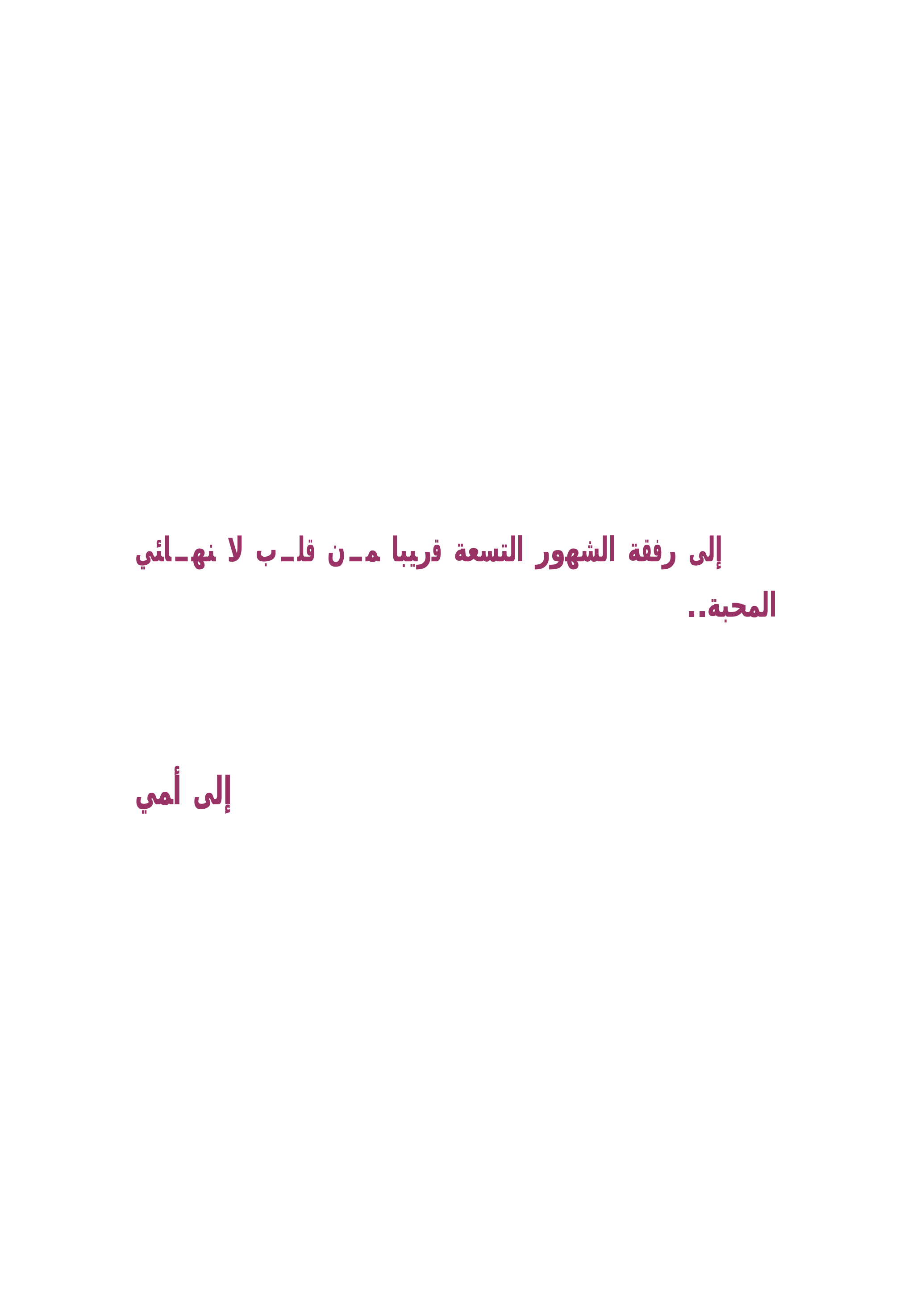

www.kotobarabia.com
رواية
كهف الفراشات
إبراهيم فرغلي
www.kotobarabia.com

كهف الفراشات

رواية

إبراهيم فرغلي

طبقا لقوانين الملكية الفكرية



إلى رفقة الشهور التسعة قريبا مـن قلـب لا نهـائي المحبة..

إلى أمي

مركب تاخدني.. لبلاد بعاد

ولقا يصادفني. من غير ميعاد

زمن ياخدني لمكان..

عطشان أنا عطشان..

عبد الرحيم منصور

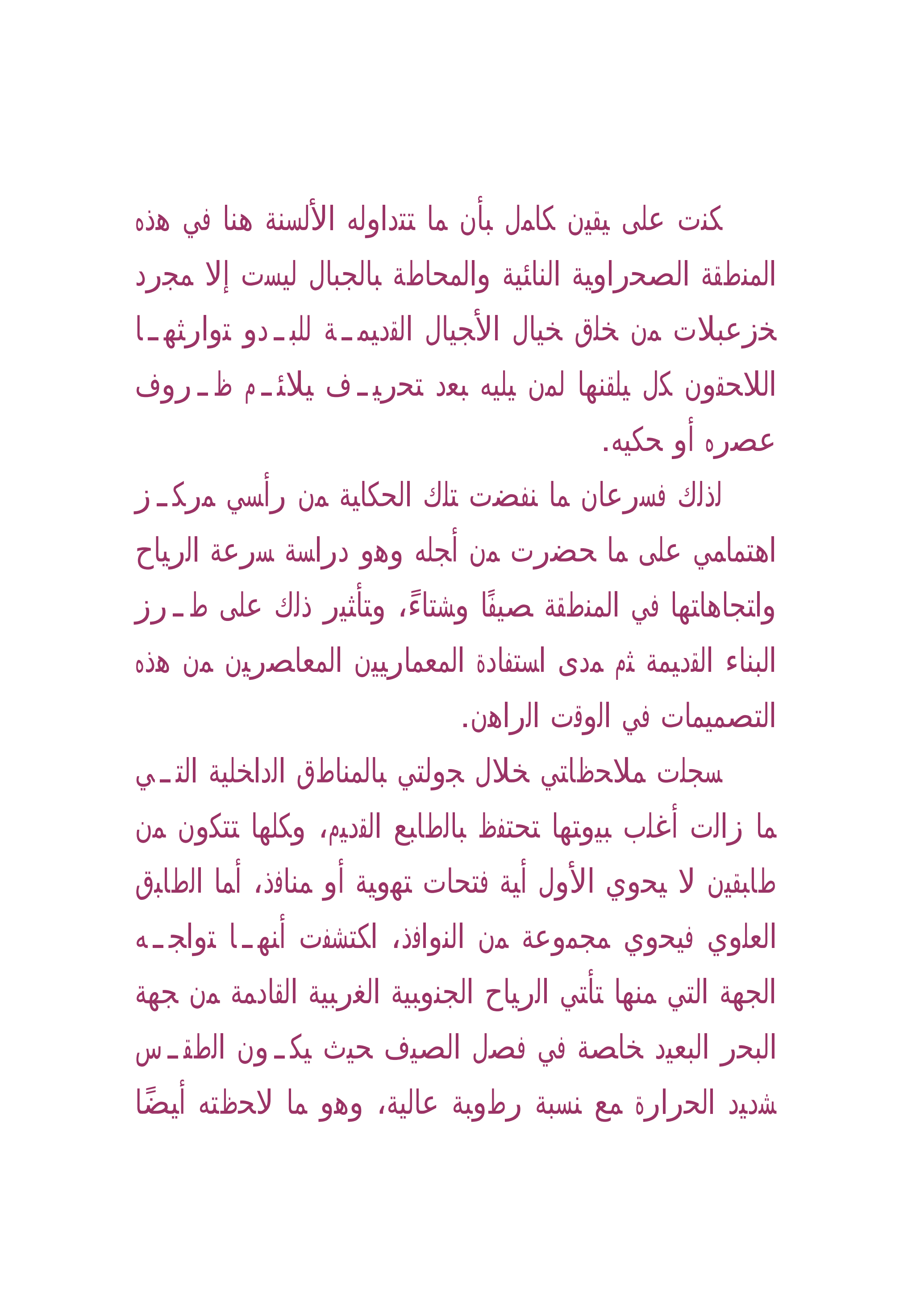
* الأغنية بصوت محمد منير

فهرس

مدخل

فراشات [1]

(١) فراشات : قصة قصيرة نشرت سابقًا ضمن مجموعـة قصصـية باسم «باتجاه المآقي».
وقد أعيد نشرها ببعض التصرف إذ إن هذه الروايـة لا تسـتقيم أحداثها دون الإشارة إليها .



كنت على يقين كامل بأن ما تتداوله الألسنة هنا في هذه المنطقة الصحراوية النائية والمحاطة بالجبال ليست إلا مجرد خزعبلات من خلق خيال الأجيال القديمـة للبـدو توارثهـا اللاحقون كل يلقنها لمن يليه بعد تحريـف يلائـم ظـروف عصره أو حكيه.

لذلك فسرعان ما نفضت تلك الحكاية من رأسي مركـز اهتمامي على ما حضرت من أجله وهو دراسة سرعة الرياح واتجاهاتها في المنطقة صيفًا وشتاءً، وتأثير ذلك على طـرز البناء القديمة ثم مدى استفادة المعماريين المعاصرين من هذه التصميمات في الوقت الراهن.

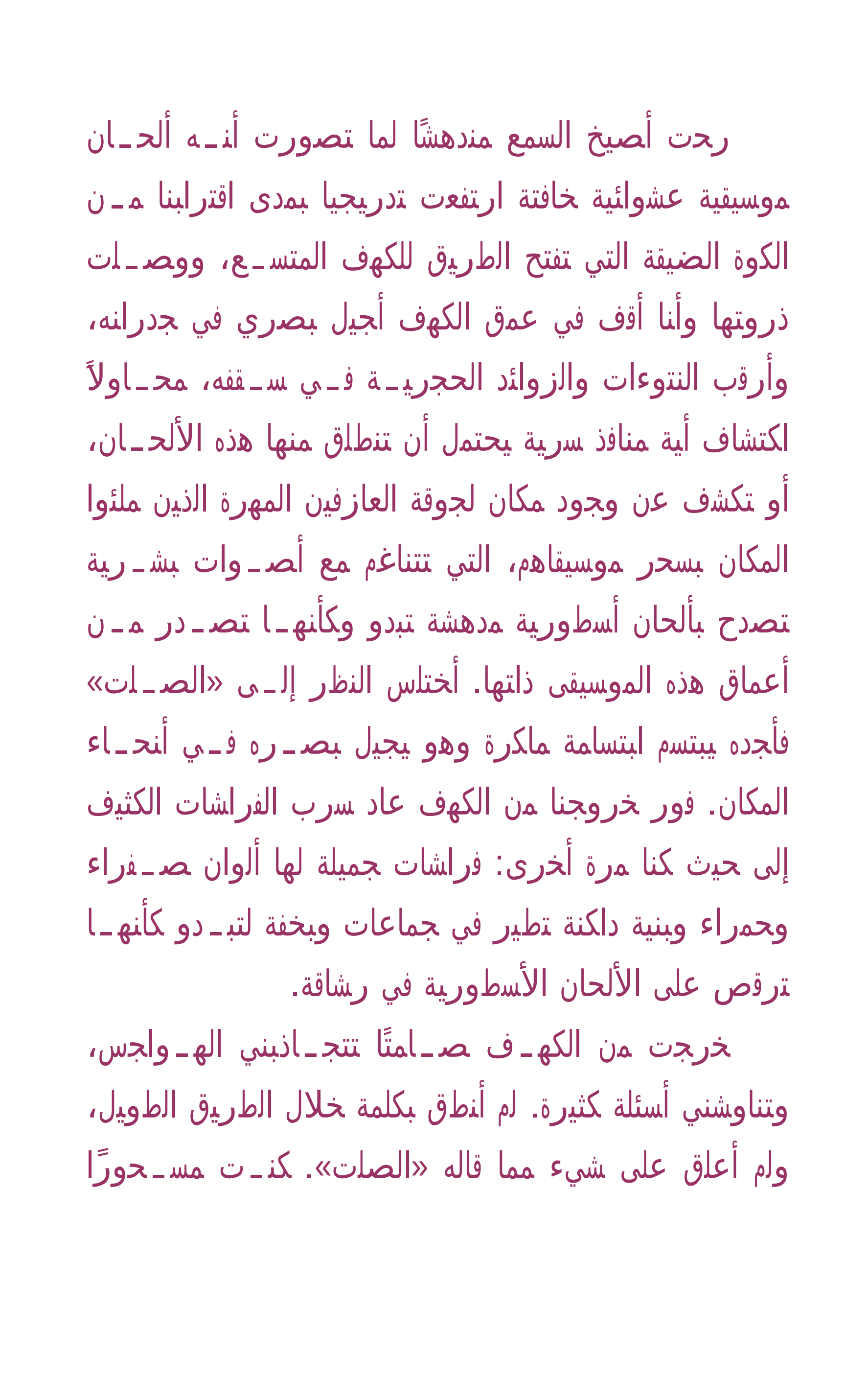
سجلت ملاحظاتي خلال جولتي بالمناطق الداخلية التـي ما زالت أغلب بيوتها تحتفظ بالطابع القديم، وكلها تتكون من طابقين لا يحوي الأول أية فتحات تهوية أو منافذ، أما الطابق العلوي فيحوي مجموعة من النوافذ، اكتشفت أنهـا تواجـه الجهة التي منها تأتي الرياح الجنوبية الغربية القادمة من جهة البحر البعيد خاصة في فصل الصيف حيث يكـون الطقـس شديد الحرارة مع نسبة رطوبة عالية، وهو ما لاحظته أيضًا

في أثناء زيارتي لذلك الحصن الضخم الواقع على أطـراف المنطقة، فبالرغم من إضافة الأسـوار والمخـابئ السـرية والأبراج فإن عامل المناخ كان حاسمًا في التقيـد بالتصـميم ذاته.

كان «الصات» هو الشخص المكلف بمراقبتـي. وهـو على معرفته التامة بالمكان – آثاره وأشخاصه – له مواهب خاصة ؛ إذ إنه يتقن اللغة الإنجليزيـة واللهجـات العربيـة المختلفة ويتكلمها كأهلها، كما أنه على دراية تامة بكل مداخل الكهوف المنتشرة في أعماق سلاسل الجبـال التـي تحـيط بالمكان ناهيك عن دروبهـا الداخليـة ومخابئهـا السـرية ومخارجها إن وجدت.

يأتي إليّ في الصباح ليسألني عن الأمـاكن والمنـاطق التي أرغب في زيارتها ليحدد على ضوء ذلك برنامج اليوم، وترتيب زيارة المنطقة.

كان الكهف مستقرا في بطن أضخم جبال المنطقة، على ارتفاع نحو عشرة أمتار عن سطح الأرض. وكان علينـا أن نصعد بحذر شديد ؛ بسبب الانحدار الشديد للجبل بالإضـافة إلى وعورته الشديدة.



رحت أصيخ السمع مندهشًا لما تصورت أنه ألحان موسيقية عشوائية خافتة ارتفعت تدريجيا بمدى اقترابنا من الكوة الضيقة التي تفتح الطريق للكهف المتسع، ووصلت ذروتها وأنا أقف في عمق الكهف أجيل بصري في جدرانه، وأرقب النتوءات والزوائد الحجرية في سقفه، محاولاً اكتشاف أية منافذ سرية يحتمل أن تنطلق منها هذه الألحان، أو تكشف عن وجود مكان لجوقة العازفين المهرة الذين ملئوا المكان بسحر موسيقاهم، التي تتناغم مع أصوات بشرية تصدح بألحان أسطورية مدهشة تبدو وكأنها تصدر من أعماق هذه الموسيقى ذاتها. أختلس النظر إلى «الصلات» فأجده يبتسم ابتسامة ماكرة وهو يجيل بصره في أنحاء المكان. فور خروجنا من الكهف عاد سرب الفراشات الكثيف إلى حيث كنا مرة أخرى: فراشات جميلة لها ألوان صفراء وحمراء وبنية داكنة تطير في جماعات وبخفة لتبدو كأنها ترقص على الألحان الأسطورية في رشاقة.

خرجت من الكهف صامتًا تتجاذبني الهواجس، وتناوشني أسئلة كثيرة. لم أنطق بكلمة خلال الطريق الطويل، ولم أعلق على شيء مما قاله «الصلات». كنت مسحورًا

ومسكونًا بالألحان وبقدرتها المدهشة على اسـتعادة شـفافية الروح.

أنهكني الأرق إذ تناوبت الألحان والأفكـار وحكايـات «الصلت» على رأسي فلم أستطع النوم، عانـدتني مخيلتـي وراحت تتسع بشكل مرعب بحيث إنني فقدت السيطرة على كل ما راح يطوف بها من مشاهد وما يحلق مـن خيـالات وبشر. وبين آن وآخر يختفي من رأسي كل شيء عدا مشهد الفتى وفتاته في أعماق الكهف، وهما يتحولان إلى فراشـتين جميلتين، سرعان ما تحول رفيفهما إلى ألحـان أسـطورية صاخبة لم تنقطع حتى هذه اللحظة.

رأيت القافلة تسير عائدة تحوم حولها صقورها، يتقدمها نعش لشيخ القبيلة؛ إذ إنه لم يحتمل المفاجـأة التـي أفقدتـه صوابه، وهو يرى بعينيه ابنته العاصية وعشيقها يتحـولان إلى فراشتين – كما حكى لي الصلت – وكانت الألحان تتردد في أعماقي بصخب، تنثر النشوة وتتدفق بلا انقطاع.

* * *

أعتقد أنني استيقظت في اللحظة التي بدا فيهـا جسـدي معلقًا في الهواء تمامًا، وعندما ارتطمت بـالأرض نهضـت

مفزوعًا. حدقت في موضعي على الفراش حيث كنت نائمًا منذ لحظة. اعتدلت جالسًا أحاول استرجاع تفاصيل الحلم الذي رأيت فيه ما جعلني ألقي بنفسي من فوق الفراش. بسم ا الرحمن الرحيم.. تضخمت صورة السيدة العجوز في مخيلتي، وبدت ملامحها شديدة الوضوح، خاصة عيناها الصغيرتان السوداوان اللتان تعكسان طيبتها وعنادها في آن. غير أنها عندما حدقت في عيني اكتشفت قوتهما الهائلة إذ هيئ لي أنهما قادرتان على قراءة كل ما يجول بعقلي من أفكار وما يطوف في روحي من مشاعر.

فاجأتني العجوز بعينيها اللتين وجدتهما في مواجهتي تنفذان إلى أعماقي وقد سلبتا قدرتي حتى عن تحويل عيني هروبًا من ذلك التأثير النفاذ، وكانت الكلمة تتضخم في أعماقي..الشجرة...! عندما تحولت العجوز تحولاً مفاجئًا ومداهمًا كما الصرخة التي راعني خروجها من أعماقي...... « الشجرة »!! وكانت هي ذات الشجرة المتاخمة لكهف العشاق.

* * *

كان الهواء الرطب الذي يلفح وجهي يزيد من حماسي وأنا أسير خلال الوادي الضيق الذي يقع الكهف على أطرافه. ولكي أكون صادقًا فإنني لم أكن سائرًا إذ شعرت بأنني خفيف تمامًا وكأنني محمول من قبل قوة غريبة وغير معروفة كان عليها أن تسري بي إلى حيث كانت تلك الشجرة. أندفع غير آبه بالليل ولا بالظلام ولا حتى ذلك العواء المخيف الذي كان يتردد في أرجاء الوادي وكثيرًا ما أرعبني وأذهب عن عيوني النوم خلال الليالي السابقة. عندما وصلت أخيرًا كانت الرياح قد اشتدت تمامًا. تلفت حولي في حذر عندما التقطت أذني صوت بدا كأنه آهات خافتة مختلطة بأنات واهنة كانت تخرج لاهثة غير أني لم أستطع تحديد مصدرها.

سمعت اسمي فأجفلت وكان الصوت الواهن يشتد قليلاً معلنًا عن مكان صاحبه. رأيت الجسد مسربلاً بالأسود ملقى على الأرض بلا حركة. عندما اقتربت تبينت من الصوت الذي صارت نبراته أكثر وضوحًا أنه يخص أنثى... سألتني بوهن:

أخيرًا حضرت؟

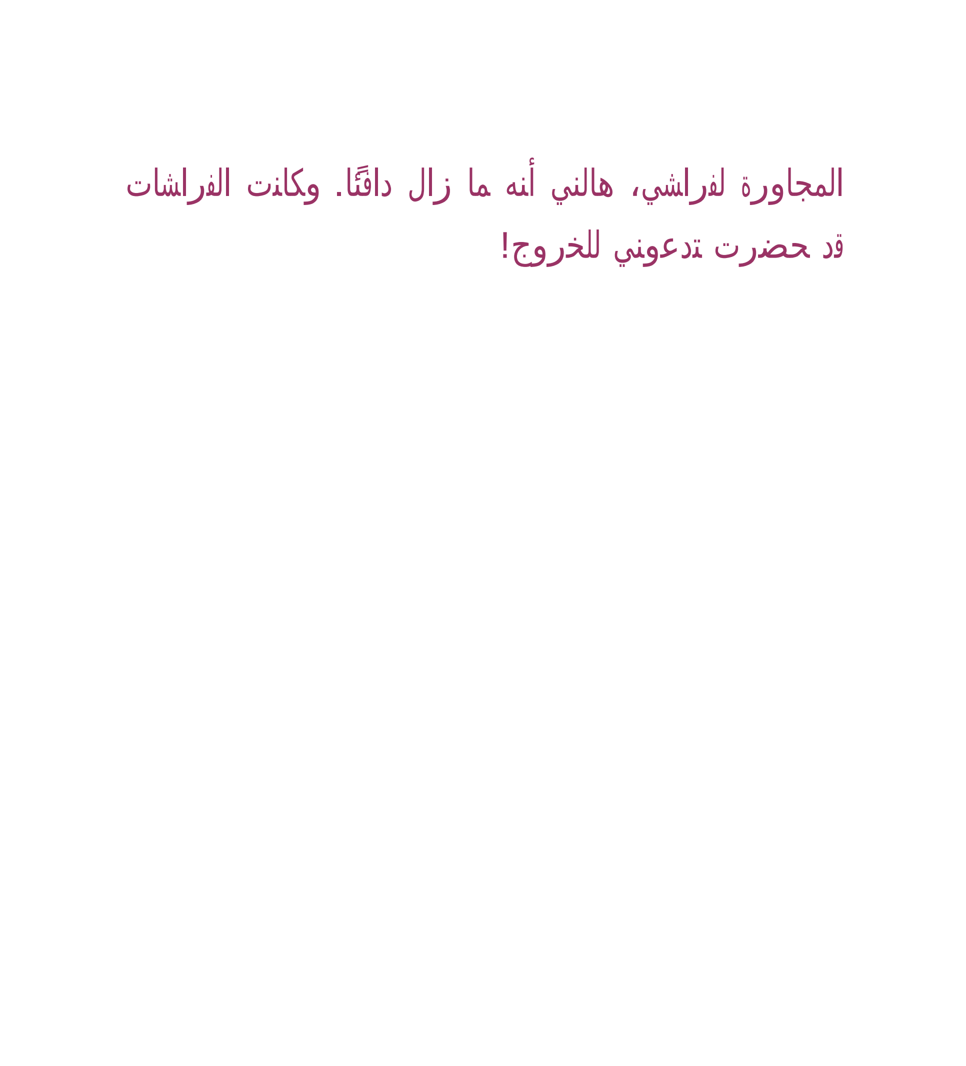
أخرجت من حلقي همهمات غامضة إذ إنني لم أكن أفهم شيئًا. تأوهت بشدة فيما كنت أحاول مساعدتها على النهوض وهي تضغط بأسنانها العلوية على شـفتها السـفلى. تأملـتُ عينيها فراعني جمالهما. لم تكن عيناها السوداوان واسـعتين غير أنهما كانتا تلتمعان ببريق أخاذ، يـزداد كلمـا حـدقتُ فيهما... وارتجفت. عاودني هذياني. وقـد أدركـت أننـي أعرفها منذ عمر طويل.. ربما يمتد بطول حيـاتي كلهـا.. عاودني هذياني.

اصطكت الأسنان / عبق الجسد الأليف / جراح الجسـد المثخنة لم تصل إلى الروح / صهيل خيول قيدتْ أطرافها ما برح يداهمني / ثارت الخيل وراحت تطرق الأرض بقـوة / آآه ه / حلقوا شعر رأسكِ يا جميلة / هل طـال ذلـك مـن سحرك قيد شعرة / عاودتها الحمى فطافت كفي على الجسـد النحيل الذي لم تزده الجراح إلا نعومة / عيناكِ يـا مليكتـي تضيئان / ارفقي بقلبي الطفل فأنا لا أحتمل آهاتـك / قلبـي يرقص على إيقاع خلخالك / خمرية أنـت لا سـمراء إذن / طاقت الشفتان على الحلمتين فهمستا انتظرنا عشرين عامًا / وزادت الشفتان ثمانية / إذا حل علينا عيد سأحنيك بنفسـي /

لأنامل قدميك بهجة صباح توقظني فيه عينـاك / أغرقتنـي بخمر عينيك فلا تبالي بهذياني / أتـدفق إليـك أو أتـوق / احمني من قهر القبيلة يا جميل / نداءاتك يزركشـها رنـين الخلخال / امسحي دموعك وابكِ كطفلة / عيناك تتسعان فـي مرآة عيني فتحتوياني / ارتجفت فـي احتكـاك العـانتين / لا تبعدي ساقيك لأتحسس الخلخال / رفيف أجنحة الصـقور نذير الشؤم / لا تتركني لهم يا جميل / دثريني أنت بعريـك لنطير / مع الفراشات كدنا نطير.

* * *

لم ينجح «الصلت» لأسبوعين متتاليين في إخراجي من حالة الصمت التي تملكتني، كما أنني رفضت كل ما نـاولني إياه من أدوية وأعشاب جلبها لـي لتـذهب بـالحمى التـي سيطرت على جسدي. غير أنني بعدما رحت أحلم بالفراشات كثيرًا، خرجت عن صمتي، وأقسمت له أنني أصدق كل مـا أخبرني به وأنا أحدق بالفراشات التي كانت تحلق حولنا فـي حذر. في صباح اليوم التالي فوجئت بوجود خلخـال فضـي مبرقش بنقوش جميلة وقديمـة موضـوع علـى المنضـدة



المجاورة لفراشي، هالني أنه ما زال دافئًا. وكانت الفراشات قد حضرت تدعوني للخروج!


الخروج

- ١ -

لم أحمل معي إلا قنديلاً ودفتر مذكراتي القديم. أحكمت من غلق المعطف الذي تدثرت به عندما وضعت قدمي خارج الباب. حاولت تجاهل خوفي وأنا أتحسس طريقي بين النخل الواقع أسفل الجبل. تجاهلت الأصوات الغريبـة المصـاحبة لخرير المياه في المجرى الموازي للطريق. كتمت صراخي عدة مرات وأنا أتفادى ما فاجأتني من كائنات لم أعرف مـا إذا كانت طيورًا ليلية أم خفافيش، أو ربما أشباحًا لها عمـر هذا الكهف.

وجدت نفسي أخيرًا أقف في عمق الكهف لاهثًا وممتلئًا بالموسيقى السحرية التي تصطخب في أرجاء المكـان. فـي اللحظة التالية صرخت عندما شاهدت شبحًا ضخمًا يقتـرب مني بخطى وئيدة قبل أن يسألني بصوت غياظ:

- من أنت؟

- أهذا أنت يا صلت؟

- لست «الصلت». أجب عن سؤالي.

- أجفلت ولم أجد ما أقوله.

جاءني صوته أكثر غلاظة:

- ألم تسمع سؤالي؟

- أنا.. حضرت.. لأجل.. فتاة.. كنت أحلم بها كثيـرًا.. رأيتها هنا منذ أسبوع وقد حضرت لأبحث عنها.

حلّ الصمت لفترة قبل أن يأتيني صوته مرة أخرى وإن حملت نبراته شبهة اهتمام ما:

- صفها لي.

- لا وصف لها.

- هل هي من الإنس أم من الجان؟

- لا.. لا.. طبعًا إنسية.

- فكيف تكون بلا وصف؟

حاولت استرجاع تفاصيل الرؤيا وذكرتها له تمامًا كمـا رأيتها. فتأملني قليلاً وهو يحدق بعيني قبل أن يقول:

- ما تبحث عنه يبدو مستحيلاً إذ إنني لا أعرف وصـفًا كهذا، غير أني ألمح في عينيك ما لا يظهـر إلا فـي عيون العشاق. فاسمع مني على أن تعدني بأن تحكـي لي بدورك كل شيء فربما أستطيع مساعدتك.

أنت هنا في كهف الفراشات أو بالأحرى كهف العشاق. لم يصل إلى هنا إلا عاشق. غير أن المتاهة في هذا الكهف بلا قرار. ودروبها وعرة. وتحتاج إلى صبر وتأنٍ شديدين، وقبلها إيمان تام وإخلاص مطلق. فلم يصل قبلك أحد هنا وخرج سالمًا، سوى عاشقين تحولا بسحر الحب إلى فراشتين؛ فنجيا من القهر وتحقق حبهما المستحيل. وما تسمعه الآن ليس إلا غناءهما لحبهما الذي لا ينقطع بمرور السنين، ودعوتهما الأبدية للعشاق أن يحققوا الحب المستحيل. اعلم أيضًا أن الفساد الذي يعم في الخارج من القوة بحيث إنه لحق بدروب الكهف ومسالكه، وأصبح على الداخل إليه أن يجتاز مصاعب متعاقبة وأن يسير في دروب شاقة حتى يصل إلى مراده. أما المغامرون من أمثالك فقد تعاقبوا على هذا الكهف منذ وقت طويل، بعضهم فرّوا هاربين، وآخرون اختفوا في دروب المتاهة ولم يبقَ لأي منهم أثر.

عندما صمت الرجل أحسست بالرهبة تتلبسني خاصة أنه ثبّت عينيه في عيني بقوة:

- هل تعرف أن «الصلت» قد رأى رؤياك؟

- «الصلت»؟!

- نعم.. ولعلك لا تعرف أنه أيضًا على علم بأشياء كثيرة عنك. ولا تسألني كيف عرف. وهو يعرف من آلام العشق ما يفوق ما خبره منها سواه. وقد يحكي لك قصته يومًا. كان يصرخ طوال الليل بما عرفه عن رؤياك. ولهذا فإنني سأحكي لك قصتي كما وعدتك لمعرفتي بإخلاصك.

عندما عاود الحديث بدا صوته وكأنه يصدر من عدة رجال في نفس اللحظة يقف كل منهم في ركن خفي من أركان الكهف:

- أنا يا ولدي أحد الفراشتين اللتين سمي باسمهما هذا الكهف. كانت معشوقتي أجمل بنات قبيلتها وهو ما جعلها بطبيعة الحال مطمع رجال القرية كلها.

فاجأني ما قاله الرجل. دققت النظر في ملامحه. كانت قسمات وجهه متناسقة غير أن وجهه بدا بلا غضون. عيناه زرقاوان واسعتان صافيتان كأنهما عينا شاب في العشرين، وبدا جسده فتيا رغم الانطباع الذي يعطيه بأنه عجوز معمّر..

أفقت من شرودي وهو يقول:

- يوميا مع وصيفاتها إلى البركة المجاورة للقصر تخلع ثيابها كلها وتلقي بها إليهن قبل أن تسلم جسدها لمياه البركة تلهو وتلعب وتغني.. وكان صوتها جميلاً إلى الدرجة التي تصمت معها كروانات وبلابل لا همّ لها إلا الصداح..

بدأت أصيخ السمع للألحان التي لم تتوقف من حولنا، إذ تهيأ لي أنها تتناغم مع أصوات بشرية تصدح بألحان مدهشة، تبدو وكأنها تصدر من أعماق هذه الموسيقى ذاتها. حاولت أن أركز لأتعرف على صوت الأميرة الساحر.. دون جدوى.. وجاءني صوته مرة أخرى ليفيقني من شرودي:

- بشتى الطرق ليأمن بطشه ويحقق مآربه. وما إن وقع بصر ابن ذلك الطاغية على الأميرة حتى شغف بها، ولما رأت أنه يشاركها ما تحبه بادلته إعجابًا بإعجاب، غير أنها بمرور الوقت اكتشفت أن شيئًا من ذلك لا يعنيه، وأنه لم يكن يرغب إلا أن يضم جثة جديدة إلى جثث الحريم في قصره.

حاولت أن أكوّن صورة عن هذه الأميرة. وقد داعبت خيالي بقوام فارع وبشرة بيضاء وشعر فاحم مسترسل حتى

ظهرها. ومكتنزة قليلاً رغم طولها. ثم إنها أصبحت أطـول قليلاً وصارت بشرتها نحاسية وقدماها نحيلتـان ودقيقتـان.. وعيناها عسليتان وبهما سحر خاص.

ارتفعت نبرات صوته كأنه أدرك غيـابي عمـا يقولـه فانتبهت:

- من براثن ذلك الوغد. ومنذ ذلك اليوم بـدأت قصـتي معها والتي كادت أن تهلكنا لولا تلك المعجزة القدرية التي حولتنا بقوة الحب وإرادته، إلى فراشتين. هذه هي قصتي. قصة هذا الكهف. وقد أوجزتها لأنني ألمح في عينيك لهفة العشاق. تريد أن تبدأ الرحلة.. أليس كذلك؟ ليكن. ولكن ليس قبل أن تنفذ وعدك بأن تحكي لي كل شيء.

مددت إليه بدفتر مذكراتي وأوراقي.. تركتها بين يديـه وأنا أبدأ سيرى بعيدًا.. كمجذوب، وكان صـوته يلاحقنـي «اصبر» يا ولدي.. الطريق وعرة ولا يعرف خفاياها إلا من امتلك مفاتيحها.. اصبر.. اصبر.. اص........... ».

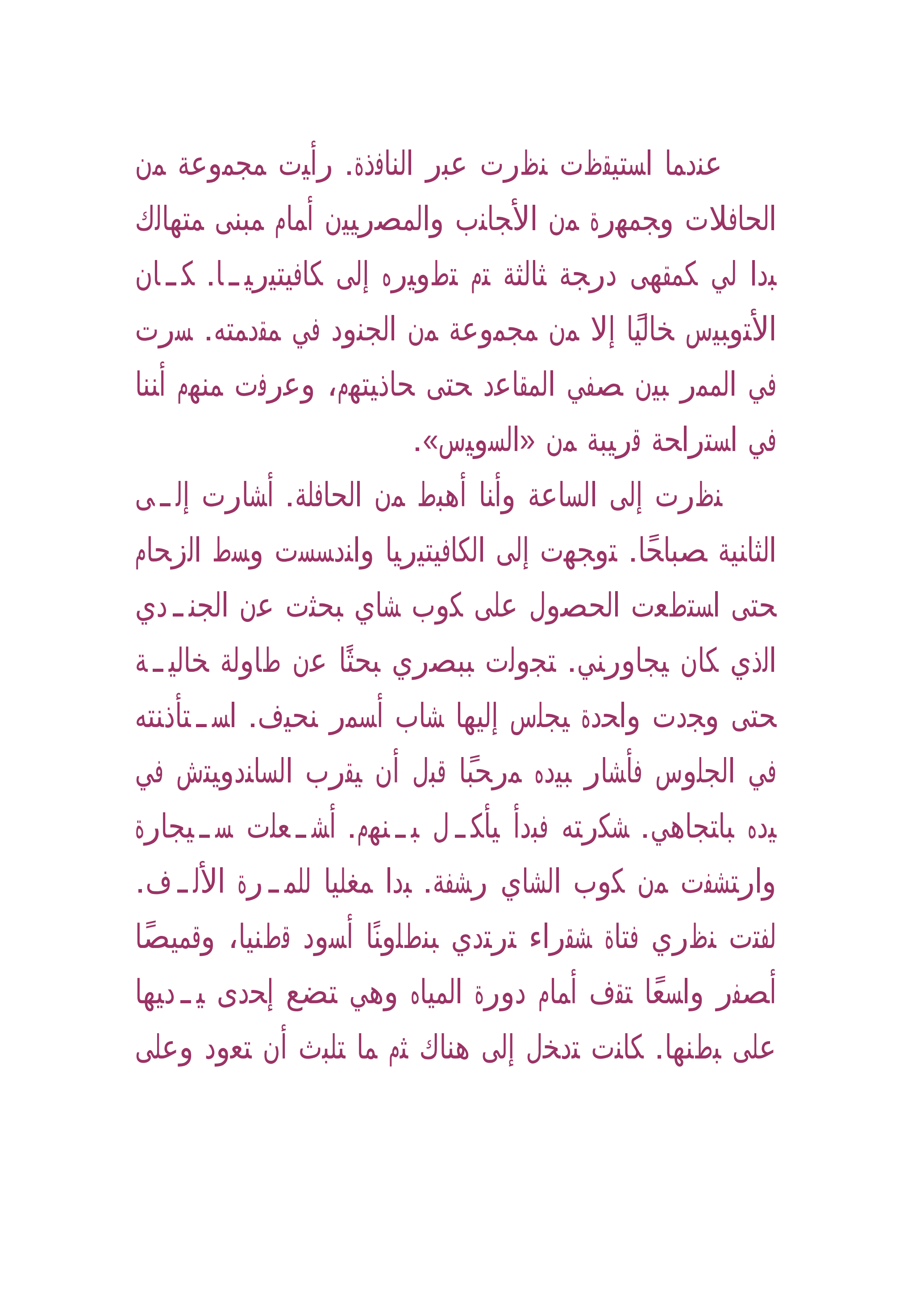
- ٢ -

تنهدت بعمق فور انطلاق الأتوبيس الذي بدأ في التحرك أخيرًا. التفت إلى الساعة في يدي. كانت تشير إلى التاسعة. ألقيت نظرة أخيرة على الفتاة الشقراء عبر النافذة. لم أستطع رؤيتها بوضوح. انعكست صورتي على النافذة فداهمني توتري مرة أخرى.

ارتطمت ذراع الجالس بجواري بكتفي. التقت عينانا. همهم معتذرًا. ابتسمت وهمهمت بدوري. أدركت من زيه العسكري أنه مجند يقضي فترة تدريبه العسكري.

لم أستطع أن أتبين شيئًا عبر النافذة. أدركت من الظلام الدامس أن الأتوبيس قد خرج من المدينة. كانت الشاشة تعرض فيلمًا سخيفًا فعاودت التحديق عبر النافذة.

هدهدني النعاس.. ولم أكن قد نمت جيدًا بالأمس كما هي حالي في الشهور الثلاثة الأخيرة. حدقت في اللاشيء عبر النافذة مستسلمًا للنعاس حتى غفوت.



عندما استيقظت نظرت عبر النافذة. رأيت مجموعة من الحافلات وجمهرة من الأجانب والمصريين أمام مبنى متهالك بدا لي كمقهى درجة ثالثة تم تطويره إلى كافيتيريـا. كـان الأتوبيس خاليًا إلا من مجموعة من الجنود في مقدمته. سرت في الممر بين صفي المقاعد حتى حاذيتهم، وعرفت منهم أننا في استراحة قريبة من «السويس».

نظرت إلى الساعة وأنا أهبط من الحافلة. أشارت إلـى الثانية صباحًا. توجهت إلى الكافيتيريا واندسست وسط الزحام حتى استطعت الحصول على كوب شاي بحثت عن الجنـدي الذي كان يجاورني. تجولت ببصري بحثًا عن طاولة خاليـة حتى وجدت واحدة يجلس إليها شاب أسمر نحيف. اسـتأذنته في الجلوس فأشار بيده مرحبًا قبل أن يقرب الساندويتش في يده باتجاهي. شكرته فبدأ يأكـل بـنهم. أشـعلت سـيجارة وارتشفت من كوب الشاي رشفة. بدا مغليا للمـرة الألـف. لفتت نظري فتاة شقراء ترتدي بنطلونًا أسود قطنيا، وقميصًا أصفر واسعًا تقف أمام دورة المياه وهي تضع إحدى يـديها على بطنها. كانت تدخل إلى هناك ثم ما تلبث أن تعود وعلى

وجهها ملامح استياء وألم. ثم اندفعت باتجاه الحمام وتأخرت فأدركت أنها أخيرًا قد قضت حاجتها.

ارتشفت رشفة أخرى من كوب الشاي. رفعـت عينـي فتعلقت بعيني فتاة نحيفة بشرتها قمحية أخاذة، أعطاها شعرها المجعد هالة من الجاذبية، سددت نظرها إليّ بإصرار فنحيت نظري عنها مرتبكًا، وأنا أجذب أنفاسًا متلاحقة من السيجارة في يدي.

اختلست نظرة أخرى فوجـدتها تحـول عينيهـا إلـى صديقتها الجالسة بجوارها وتبادلها الضحكات.

خرجت الفتاة الشقراء من دورة المياه وعلـى وجههـا ملامح تقزز. أحسست بثقل أسفل بطني فتوجهـت صـوب الحمام. تلقفتني رائحة نفاذة وشعرت بالاختناق. أدركت سـر تقزز الفتاة وترددها طويلاً قبل دخول الحمام.

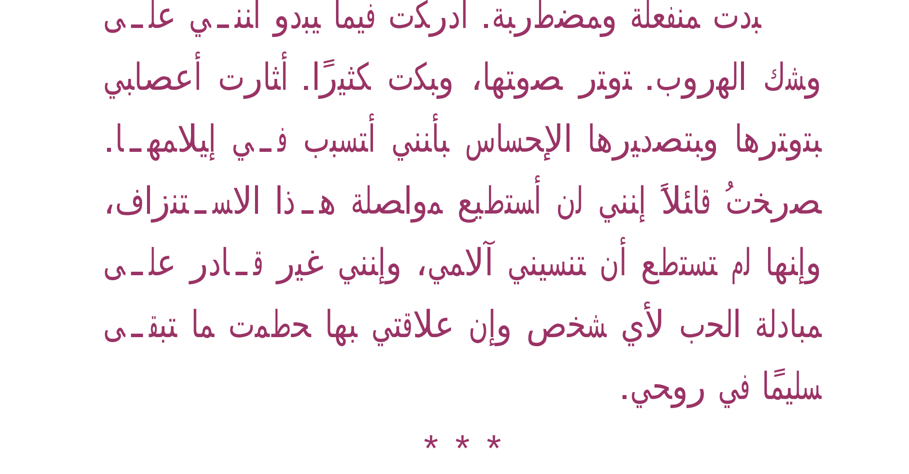
خرجت لاهثًا من طول كتماني لأنفاسي. راودتني رغبة في التقيؤ فأسرعت إلى الخارج لاستنشـاق الهـواء بعمـق. وجدت الجميع يتجهون إلى الأتوبيسات. بحثت عـن الفتـاة القمحية إلا أنني لم أجد لها أثرًا. أسرعت باتجاه «الأتوبيس» حيث كان السائق يطلق نفيره في عصبية.

سمعت ضحكتها في أعماقي. كنت قـد افتعلـت معهـا مشكلة في الأيام الأخيرة قبل قراري بالهروب إلـى «شـرم الشيخ» منها ومن صورة نورا التي تلاحق خيالي بإصـرار عنيد. أردت الهروب من نظرات الشفقة ومن رئيسي بالعمل، ومن نفسي. ربما كان ذلك ممكنًا ولكن كيف أهرب من هذه الهواجس التي تسكنني ومن الأرق المرعب الذي يمنع عني النوم ومن الكوابيس التي تداهمني إذا عرف النوم طريق إلى عيوني؟!

أريد أن أهرب منها بدون مواجهة. فلم أعد أشعر بأنني أمتلك القدرة على مواجهة أي شيء. أعرف أن هذا سيسبب لها آلامًا. لكنها أصرت، وكان عليّ أن أصارحها. قلت لهـا إن ما بيننا محكوم عليه بالفشل.

عندما ألحت في لقائي حاولت التنصل. أردت أن أوضح لها الأمر بهدوء، أن أقول لها إن علاقتنا تسببت في زيـادة إحساسي بالذنب. ولم تنجح في محو صورة «نـورا» مـن خيالي. بالعكس كنت أقارنها بها طوال الوقـت. ولـم تكـن المقارنة في صالحها. فقد كان تفاهمنا أنا «ونـورا» مدهشًـا مهما بدونا مختلفين، ومهما ذهبت عصـبيتنا إلـى منـاطق

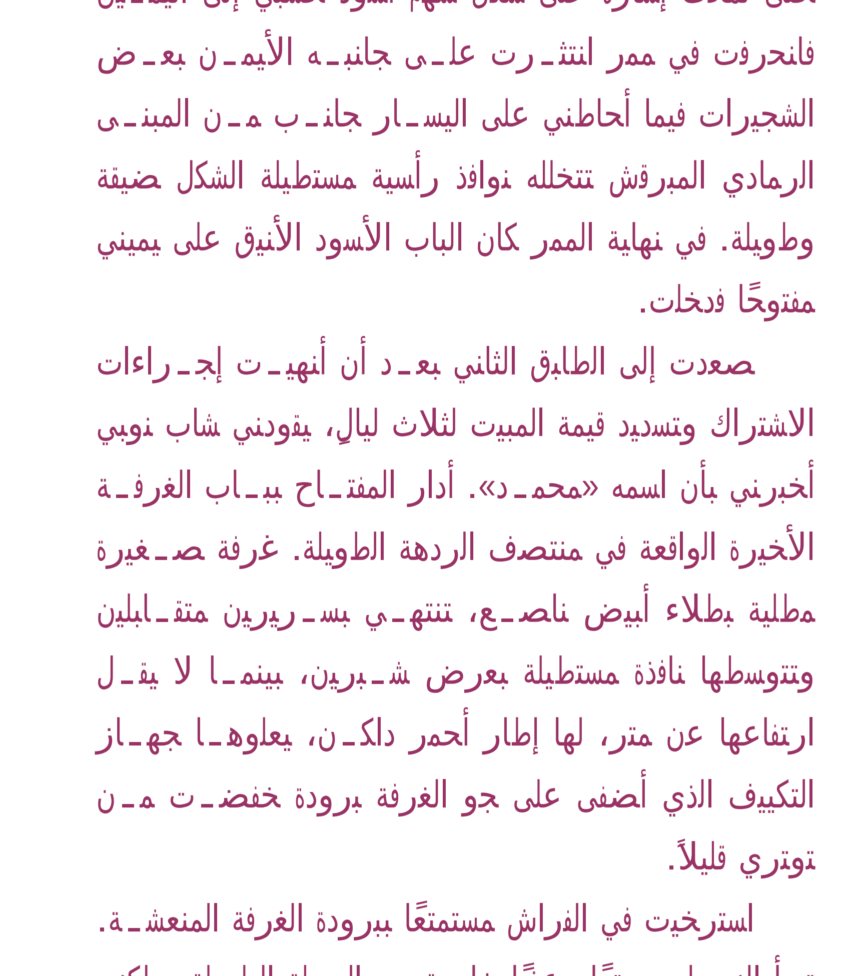
الانفجار. لم أكن معتادًا على مسألة استمناء المشاعر هذه، افتعال أنني أحبها. لم أكن مستعدًا للكذب عليها. غير أنني كنت مدفوعًا إليها كملاذ أخير من الجنون الذي شعرت أنني موشك عليه.



بدت منفعلة ومضطربة. أدركت فيما يبدو أنني على وشك الهروب. توتر صوتها، وبكت كثيرًا. أثارت أعصابي بتوترها وبتصديرها الإحساس بأنني أتسبب في إيلامها. صرختُ قائلاً إنني لن أستطيع مواصلة هذا الاستنزاف، وإنها لم تستطع أن تنسيني آلامي، وإنني غير قادر على مبادلة الحب لأي شخص وإن علاقتي بها حطمت ما تبقى سليمًا في روحي.

* * *

أشارت عقارب الساعة في يدي إلى السابعة وأنا أقترب من الباب الحديدي الضخم المتاخم للسور المحيط بالمبنى الأنيق المكون من طابقين، والذي يطل على فناء واسع به مجموعة من ملاعب كرة السلة والقدم، تجاورها مساحة أخرى خالية حددت بإطار أخضر من الحشائش العشوائية والزهور وبعض شجيرات صغيرة.



سرت على مشاية أسمنتية تفصل بين المبنى والفناء حتى لمحت إشارة على شكل سهم أسود خشبي إلى اليمين فانحرفت في ممر انتثرت على جانبه الأيمن بعض الشجيرات فيما أحاطني على اليسار جانب من المبنى الرمادي المبرقش تتخلله نوافذ رأسية مستطيلة الشكل ضيقة وطويلة. في نهاية الممر كان الباب الأسود الأنيق على يميني مفتوحًا فدخلت.

صعدت إلى الطابق الثاني بعد أن أنهيت إجراءات الاشتراك وتسديد قيمة المبيت لثلاث ليالٍ، يقودني شاب نوبي أخبرني بأن اسمه «محمد». أدار المفتاح بباب الغرفة الأخيرة الواقعة في منتصف الردهة الطويلة. غرفة صغيرة مطلية بطلاء أبيض ناصع، تنتهي بسريرين متقابلين وتتوسطهما نافذة مستطيلة بعرض شبرين، بينما لا يقل ارتفاعها عن متر، لها إطار أحمر داكن، يعلوها جهاز التكييف الذي أضفى على جو الغرفة برودة خفضت من توتري قليلاً.

استرخيت في الفراش مستمتعًا ببرودة الغرفة المنعشة. تهيأ النوم لي ممتعًا وعذبًا خاصة بعد الرحلة الطويلة، ولكني

خفت أن أستغرق في النوم إذا استسلمت للنعاس، فأسرعت خارجًا إلى الحمام الذي يتوسط الردهة الطويلة خارج الغرفة. اغتسلت ووقفت تحت المياه الباردة طويلاً. عندما انتهيت ارتديت ثيابي بسرعة وتوجهت إلى المطعم في الطابق السفلي. تناولت إفطاري ثم خرجت أقصد الشاطئ.

نزلت إلى المدينة أسفل التل الذي يستقر في أعلاه «بيت الشباب»، بحثت عن وسيلة مواصلات دون جدوى. اقترح عليّ أحد البدو أن ينقلني في سيارته النصف نقل نظير جنيهين فوافقت على مضض.

في الطريق إلى الشاطئ أثار انتباهي وجه آدمي منحوت في الصخر المكون للجبل القائم على جانبي الطريق. حاولت استدعاء اسم صاحبه غير أني أخفقت. سألت السائق فقال: هذا وجه «كينيدي». في أثناء الاحتلال كان الإسرائيليون يسلطون عليه الضوء ليلاً استهدافًا للسياح.

توقفت السيارة في ساحة إسفلتية واسعة تعلو مستوى الشاطئ الممتد إلى اليسار وقد تراصت الفنادق المكونة من مجموعة شاليهات وكافيتريات على طول امتداده. أعطيت السائق النقود شاكرًا قبل أن أهبط من السيارة. بدأت في

البحث عن الفندق الذي يعمل به «خالد» حتى وجدته. سألت عنه فأخبرني أحد العاملين بأنه نائم، وأضاف أن الفرقة التي يعزف بها لا تنهي عملها قبل الصباح.

عبرت المشاية المبلطة التي تفصل الفنادق والكافيتريات عن الشاطئ، وسرت بمحاذاة البحر. كانت الأمـواج هادئـة والمياه شديدة الزرقة. على بعد أمتار خرجت فتـاة شـقراء شعرها طويل من مياه البحر وسارت في تثاقل باتجاه الفندق. ذكرني جسدها النحيل المتناسق بـ «نورا». عـاودني ذلـك الإحساس الثقيل.

كنت أجردها من ثيابها وأتركها له يعبث فـي جسـدها كيف يشاء. فيما ينطلق صراخها من أعماقي. صراخ شـبق يبح بسبب صوتها تدريجيا. ويرتجف جسدها من شدة شهوتها كنت أراها تمسد له جسده. وأعرف أنها ستحاول إظهار أنـه التجربة الأولى في حياتها، وستتظاهر، قطعًا، بأنها لا تجيـد التقبيل. ولكنها سوف تنهش له ظهره بأظافرها. كنت أعرف أنها ستعطيه كل شيء عن طيب خاطر. وكـان هـذا هـو بالتحديد ما يفقدني صوابي وعقلي.

- ٣ -

سرت متهدج الأنفاس فيما كان الممر الذي سلكته يضيق تدريجيا حتى وجدت نفسي أمام حائط سد لا توجد به منافذ. تحسست الجدار بيدي علني أجد ما أستدل من خلاله على وجود أي منفذ دون جدوى. بدأت أطرق بكفي على الجدران برفق قبل أن تنتابني حالة هستيرية جعلتني أسرع بالطرق في كل مكان حتى تناهى إلى سمعي صوت كأنه آتٍ من زمان سحيق. ولكنني لم أفهم منه شيئًا. بعد لحظات شاهدت في أقصى ركن الجدار إلى الأسفل إضاءة شاحبة أسرعت باتجاهها لأجد كوة صغيرة. نزلت على ركبتي وأدخلت رأسي من الكوة فلم أستطع رؤية أي شيء، دفعت بنفسي داخلاً. وجدت مجموعة من الرجال أطلقوا شواربهم واللحى يفترشون الأرض في شبه حلقة دائرية وهم يحملقون باتجاهي. كانوا عرايا إلا من مآزر أخفوا بها عوراتهم. سألني أحدهم أن أقترب، وسألني عما أبحث عنه فأجبته. فقال لي بصوت رخيم وبنبرة هادئة:

- هذا هو درب الجنة. اطلب من تشتهي حضوره نأت به إليك ولو من زمان سحيق. فكر في امرأة التقيتها في أي مكان أو زمان تكن أمامك قبل أن يرتد إليك طرفك.

قدمت له وصف حبيبتي. قال اعطني دليلاً أو أثرًا. قلت: لا أملك شيئًا من هذا. سألني عن اسم أمها ولم أكن أعرفه. ضحك وهو يردد: لا تقلق سنحضرها إليك أينما كانت. اجلس في تلك الزاوية حتى تأتيك الإشارة.

مر وقت طويل قبل أن يلتفت إليّ الرجل ذو اللحية البيضاء الذي حدثني سابقًا: والآن أتى دورك. سنخلي لك المكان. وستأتي إليك من طلبتها. لكنك لن تخرج بها إلا بشروطها.

بدءوا في الخروج متتابعين، وتركوني وحيدًا مع دهشتي وقلقي والظلام.

انتظرت طويلاً حتى شعرت بأنني أتآكل بفعل القلق والخوف والإحساس بالبرد. فكرت أن أبحث عن طريق للخروج لكني لم أستطع الحركة.. فبقيت جالسًا حتى غالبني خدر كالنعاس جعلني أشعر بأنني على حافة نوم طويل..

لفحت وجهي أنفاس باردة. مددت يدي لأتحسس مصدرها فلم ألمس شيئًا.. لم أسمع سوى صوت أنفاس منتظمة تنسال على وجهي فتزيد من توتري.

بعد لحظات شعرت بملمس إصبعها لزجًا على شـفتي. ثم على وجنتي وجبهتي.. شعرت بملمس كفـين صـغيرتين ناعمتين تمران على جسدي برفق. في اللحظة التالية بـدأت في نزع ثيابي عني. اندهشت غير أنني لم أستطع حتـى أن أسألها عما تفعل. عندما انتهت من نزع ثيابي شـرعت فـي تمرير كفيها على جسدي العاري. ملمسها غريـب.. لـزج وبارد. زاد إحساسي بالضـيق. وخرجـت الكلمـات منـي بصعوبة:

- ألن تخبريني.. من أنت؟

وجاءني صوتها بنبرة غريبة بدت كالفحيح:

- أنا من تبحث عنها منذ سنين. سنوات طوال مرت وأنا هنا أنتظر. وها أنت أخيرًا قد حضرت. ولم يعد أمامنا إلا ما نفعله الآن. فلنكمل ذلك فتفتح لنا كل الأبواب.

عاودت طقوسها الغريبة. أحسسـت بالخفـة. حاولـت النهوض لكنها ألقت بنفسها على. كانت عارية. وبدا ملمـس

جسدها غريبًا وشديد البرودة. لاحظت أنهـا سـكنت عـن الحركة، ولوهلة أحسست بأنني مراقـب. داخلنـي شـعور مفاجئ بالخواء، قلت:

- لسنا مضطرين إلى ما نفعله الآن. علينا أن نخرج من هنا أولاً لنتحرر ونحقق حلمنا الكبير.

أطلقت ضحكتها الصاخبة التي بدت لي موحشة، قالت:

- ألم يخبروك بأن الدرب صعب وأن الطريق طويل وأن هناك شروطًا ينبغي تنفيذها؟

- بلى.. لكن أرى الأمر أبسط من هذا بكثير. فأنت الآن معي، وليس علينا إلا أن نركض من هنا خارجين.

- بهذه السهولة..؟!

- وما الذي سيحدث؟

- سيغلقون كل الأبواب إذا لم تنفذ شروطهم.

- ومن هم هؤلاء؟

- حراس الكهف والقائمون عليه.

- ولكن هذا هو كهف العشاق..

- وهم لم يطلبوا منا أكثر من ممارسة العشق.. والخروج إلى الحياة..

- هل يعني ذلك أنهم يراقبوننا الآن؟

- من قال ذلك؟

- كلامك يشي بذلك.

احتدت نبرات صوتها قليلاً وهي تقول:

دعك من هذا الجدل. أنت لا تستطيع أن ترفض. هم يملكون القوة. وأنا روحي معلقة بين أيديهم. إذا لم ننفذ ما يقولون فأنت تعرضني للضياع. لن أستطيع الخروج من هنا، ولأن اسمك مكتوب على موضع حرثي فإن أحدًا غيرك لا يملك القدرة على فعل ذلك، وهو ما يعني أنني سأعيش بقية حياتي مقبورة هنا، وسيفقد كل منا الآخر إلى الأبد.

- ٤ -

الحرارة الشديدة والشمس الحارقة تسببت في إحساسي بتوهج وجهي وانسيال العرق من جسدي بغزارة. وصلت إلى الشاطئ، وجدت قرية سياحية صغيرة يفصلها عن الشاطئ مساحة دائرية مرتفعة قليلاً عن سطح الشاطئ مهدت بالأسمنت، انتشرت على مساحتها مجموعة من المقاعد التي تحيط بطاولات بلاستيكية ترتكز في مركز كل منها شمسية كبيرة. في الخلف كافيتيريا صغيرة يجاورها «بار» تراصت أمامه مجموعة من المقاعد. بجوار الـ «بار» تضيق المساحة لتصبح ممرًا يتصل بمبنى أبيض صغير يضم بعض الغرف، امتدت خلفه مجموعة كبيرة من الخيام لراغبي الإقامة بأسعار أقل، فيما كان الجبل في خلفية كل ذلك رابضًا يحيط بالمكان ويساهم في صنع جماله.

اخترت أقرب الطاولات إلى الشاطئ. على مقربة مني جلست مجموعة من الشباب بالمايوهات والـ «تي شيرتات» يتأملون البحر في صمت. على امتداد بصري شاهدت فتاتين

مستلقيتين على بطنيهما تحت إحدى الشمسيات المحفورة في رمال الشاطئ ترتديان الـ «بكيني»، بينما انسـحب شـاب أسمر رشيق من جوارهما متجهًا إلى ميـاه البحـر شـديدة الزرقة.

طلبت من النادل زجاجة «كوكا كولا» ارتشفتها بسرعة وأنا أتابع الفتاتين على الشـاطئ. تأملـت المقعـد الخـالي بجواري وتمنيت، رغم كل شيء، أن أرى «نورا» جالسـة. تبثني جمال وجودها وتخلصني من هذا الشـعور بـالخواء والخوف غير المبرر وعدم الثقة المطلقـة بالبشـر وبـالقيم وبنفسي.

ملامحها محفـورة بمخيلتـي كـأنني أراهـا أمـامي لا يستخفي على خيالي شيء. ملامح وجهها الطفولي وعيناها الضيقتان السوداوان وأنفها الحاد الـدقيق وشـفتاها شـديدتا الرقة، ورقبتها النحيلة. حتى جسدها النحيـف الـذي أحفـظ مواضع الشامات على امتـداده. أنامـل يـديها الرشـيقتين بأظافرها المقببـة قلـيلاً وقـدماها الصـغيرتان النحيلتـان بأصابعهما الأليفة. استدارة ردفيها هائلي النعومة. قلـت لـو

كنت أمتلك موهبة النحت لصنعت لها تمثـالاً يماثلهـا دون الحاجة لرؤيتها على الإطلاق.

* * *

عاودت الرؤية نظري المصوب إلى الشـاطئ. كانـت الفتاتان متجهتين إلى مياه البحر. رشت إحداهما الماء بيديها وقدميها على الفتى الأسمر. ركض باتجاهها قبل أن يمسـك بها ويحملها ثم يلقي بها في الماء وكانت ضحكاتها الصاخبة تمتزج بصراخها.

لم يحضر «خالد» قبل العاشرة. تعانقنا طويلاً.. سـألني عن أسباب حضوري إلى «شرم» وأوضحت له أننـي فـي إجازة.

- جميل.. تنزل عندي في الـ «أوتيل».
- أنا رحت بيت الشباب اللي في المدينة.
- بيت شباب إيه يا عم؟ هتقعد معايا.
- بعد يومين.. مش دلوقت.
- اشمعنى؟
- أهو فرصة الواحد يتعرف على البلد فوق..

- يا ابني دي فرصة.. مراتي مسافرة دلوقت وأنا قاعـد لوحدي.
- مراتك؟ إنت اتجوزت؟
- تقريبًا..
- تقريبًا؟!
- أيوه.. أصلي ما قلتش لأي حـد.. واحـدة ألمانيـة اتعرفت عليها هنا.. حبيتها.. واتجوزنا.
- آخر حاجة ممكن أتصورها..
- شفت بقه.. المهم.. إنت أخبارك إيه؟ لسه مكتئب؟
- يعني.. حصل شوية تطورات.. بس برضـه قرفـت أكتر.

خرجت إحدى الفتاتين من البحر بمفردها وهي تقتـرب في اتجاهنا. بدا جسدها متناسقًا وإن لم يكن له نحافة أجسـاد الأوروبيات. ولم تستطع القطعة العلويـة مـن رداء البحـر الأرجواني أن تخفي إلا جزءًا صغيرًا من مسـاحة ثـدييها النافرين، بينما تناثرت قطرات المياه على الجسد ذي البشرة النحاسية بفعل الشمس، وعندما جاورتنا شعرت بأن نظراتها استفزازية. محملة بشبهة ازدراء وشهوانية فجـة. وبعـد أن

تجاوزتنا ألقيت نظرة على ردفيها فهـالني كبرهمـا. هتـف موجهًا كلامي لـ «خالد»:

- إيه ده؟!

- يا عم.. أنا رجل متجوز.

- من إمتى الكلام ده..

- آه وا باتكلم جد.. وبعدين ربنا يكفينا شرهم..

- هي إسرائيلية؟

- أيوه طبعًا.. المهم أنا لازم أسيبك دلوقت لأننا مسافرين «دهب» بعد شوية.. عندنا حفلتين هناك ممكن تيجـي معانا إذا حبيت.

- لا.. لا.. أنا ما نمتش مـن إمبـارح.. أنـا هاسـتنى وأشوفك لما ترجع.

تناولت وجبة الغداء بمطعم بيـت الشـباب بسـرعة، وصعدت إلى الغرفة. قابلني «محمد» في الردهة وأبلغني بأن الغرفة ما زالت خالية. تناولت المنشفة متوجهًا إلى الحمـام. تركت المياه الباردة تنساب طويلاً على جسدي المنهك بفعـل الإرهاق والحرارة الشديدة. شعرت بالاسترخاء. تذكرت الفتاة الإسرائيلية. تملكتني شهوة مفاجئة. كانت ذاكرتي تحتفظ بأدق

تفاصيل جسدها. لكن، وقبل أن ألتذ مباشرة، استدعيت صورة «هدى». ورحت لاهثًا أتابع استحمامي.

استقبلني جو الغرفة الرطب فازداد إحساسي بالانتعاش. ارتميت على الفراش ويبدو أنني استغرقت في النوم بسرعة.

استيقظت مخدرًا. أسرعت إلى الحمام وغسلت وجهي. ارتديت قميصًا و«شورت» ونزلت إلى الطابق السفلي. وجدت مجموعة من الشباب الأجانب تتوسطهم ثلاث فتيات التفوا حول إحدى الطاولات بالمطعم مستغرقين في مشاهدة أحد الأفلام الأجنبية بالتليفزيون. طلبت شايًا وشربته بسرعة. نظرت إلى الساعة فأشارت إلى العاشرة. سألت «محمد» عن موعد إغلاق الأبواب فأخبرني بأنهم يغلقونها في الحادية عشرة.

نزلت من الباب الخلفي الذي يؤدي إلى سلم حجري يصل بين بيت الشباب في أعلى التل وحتى الإسفلت المؤدي إلى المدينة. لم أتحمس للذهاب إلى الشاطئ، فتوجهت إلى أحد المقاهي الذي لمحته في أثناء نزولي من الأتوبيس في الصباح. كان المقهى مزدحمًا بملامح من كل مكان، تناثرت حولهم حقائبهم. اخترت طاولة بعيدة عن الزحام خارج

المقهى وطلبت من النادل قهوة ونارجيلة. لمحت الشقراء التي ناضلت لدخول الحمام باستراحة السويس تجلس بجوار شاب أشقر متناسق الملامح على الرصيف المقابل للمقهى. جلسا صامتين واجمين.

على أقرب طاولة بجواري جلست، فتاتان وشت ملامحهما المنمقة وعيونهما الضيقة وبشرتهما الحليبية بأنهما من اليابان. كانت إحداهما تدخن من علبة سجائر «مارلبورو» بيضاء توسطت الطاولة بينهما. واستغرقت كل منهما في قراءة كتاب.

أحضر النادل القهوة والنارجيلة ووضعهما أمامي بحماسة. التقطت «اللي» لأجذب أنفاسًا متلاحقة من النارجيلة. من خلف سحب الدخان الأزرق التي نفثتها في تتابع لمحت الفتاة الإسرائيلية ومعها الفتى الأسمر يقتربان باتجاه المقهى. كانت الفتاة تضحك في صخب بينما اكتفى رفيقها بابتسامة أظهرها شدة بياض أسنانه.

أشار الفتى إلى زاوية داخل المقهى، وجذب الفتاة التي ما إن جاورتني حتى فاجأتني بذات النظرة الاستفزازية.. عدت ببصري إلى الفتاة الشقراء على الرصيف المقابل

فوجدتها ما زالت صامتة بينما مال إليها صديقها يهمس فـي أذنها.

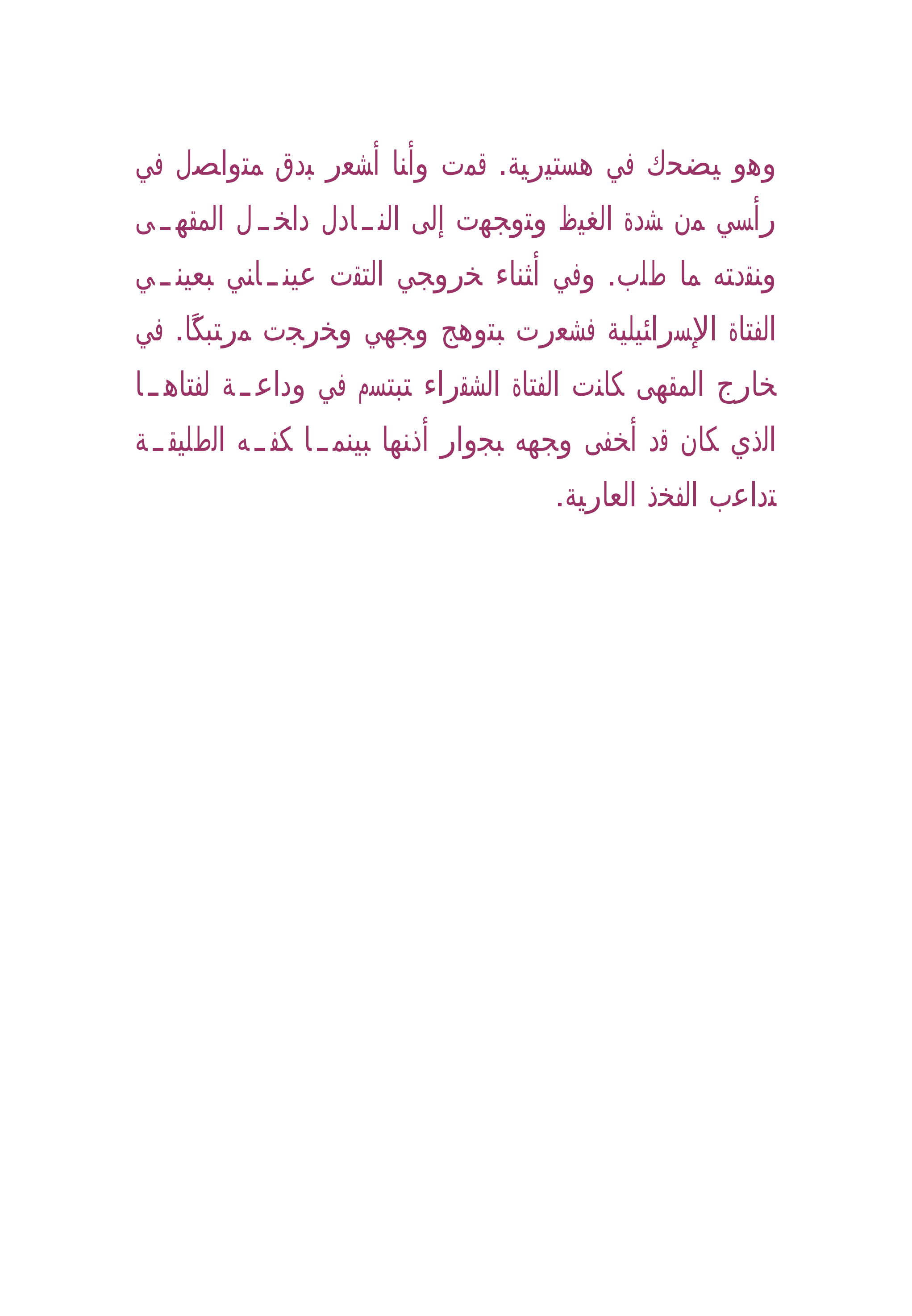
تناولت رشفة من القهوة وعدت أجذب أنفاسًا متلاحقـة. شعرت بثقل أنفاسي بسبب الجو المشبع بالرطوبة، ولم تكـن نسمات الهواء التي تلفح وجهي بين آن وآخر قد تخلصت من حرارة النهار بعد. أحسست بالاختناق فتوقفت عن التـدخين وتجرعت ما تبقى بقدح القهوة في رشفة.

أجفلت عندما سمعت بجواري همهمات غامضة تبينـت بعد لحظات أنها تخص مجذوبًا جاس على الأرض غير بعيد عني، نظرت إليه فوجدته يحدق بي. نحيت نظـري عنـه. كانت الفتاة الشقراء في مواجهتي واجمة وهـي تـدفع ذراع صديقها عن كتفيها في تبرم واضح.

استمرار الهمهمات المثيرة للأعصاب بجواري جعلنـي ألتفت إليه في غضب فانفجر ضاحكًا مما صعّد من إحساسي بالتوتر. تغلب غيظي عليّ فصرخت غاضبًا:

- فيه إيه يا عم.. مالك.. إنت هتسوق الجنان ولا إيه؟

أحدثت كلماتي تأثيرًا عكسيا فيما يبدو إذ إنها بدلاً مـن أن توقف الضحكات المستفزة جعلته يخبط بكفيه على فخـذه



وهو يضحك في هستيرية. قمت وأنا أشعر بدق متواصل في رأسي من شدة الغيظ وتوجهت إلى النـادل داخـل المقهـى ونقدته ما طلب. وفي أثناء خروجي التقت عينـاني بعينـي الفتاة الإسرائيلية فشعرت بتوهج وجهي وخرجت مرتبكًا. في خارج المقهى كانت الفتاة الشقراء تبتسم في وداعـة لفتاهـا الذي كان قد أخفى وجهه بجوار أذنها بينمـا كفـه الطليقـة تداعب الفخذ العارية.

- ٥ -

خرجت من درب الجنة وكأنني مريض بالحمى. خفتـت موسيقى الكهف قليلاً ولم أكن أسـتطيع رؤيـة أي شـيء. تذكرت أنني نسيت المصباح في حجرة السـحرة. تحسسـت طريقي في الظلام وأنا أسير ببطء في ممر بدا ضـيقًا لأنـه كان يضخّم صوت خطوات أقدامي. من بعيد لمحـت طيفًـا شاحبًا لم أستطع تبينه. توقفت فجأة وحاولت أن أكتم صرخة إثر ظهور خيال لشخص ما، تراجعت للخلف عدة خطـوات فيما كان يقترب مني ببطء. ولم يتوقف إلا عندما وقعت على الأرض. أولاني ظهره وبدأ يسير عائدًا غير أنه توقف بعـد لحظات والتفت إليّ. وتسلل إلى سمعي صوت أنثوي آسـر وشديد الرقة: «هيت لك»...

وبتصاعد لهفة العاشـق زادت حماسـتي وتسـارعت خطواتي حتى نهاية الممر الذي انتهى بمدخل ضـيق إلـى اليسار. أغلقت عينيّ تدريجيا وقلبي يقفز بين ضلوعي. كانت «نورا» أمامي بجماليها الآسر.. ترتدي غلالة شفافة تكشـف

تفاصيل جسدها النحيل الأثير. مدت إليّ يديها فأقبلت عليهـا وأنا أهتف:

- نورا..؟!

لم ترد عليّ. وكان وجهها يسطع بابتسامتها الطفوليـة. اقتربت منها، لكن ما إن لمست يديها حتى صعقتني المفاجأة. إذ تحولت فجأة إلى فراشة في حجم كف اليـد ؛ لجناحيهـا ألوان حمراء مدهشة، فيما علا صـوت موسـيقي الكهـف، وبدأت هي في ضبط إيقاع طيرانها مع الموسيقى في انسيابية مدهشة. انطلقت إلى خارج الغرفة وصـوتها يتـردد رقيقـًا وحازمًا: «الواهمون لا مكان لهم في كهف العشاق».

* * *

خرجت متتبعًا صوت الرفيف. بـدت الإضـاءة التـي تضيء الدرب أمامي كأنها تسقط من كوة في أعلى السـقف. ولاحظت أن السقف ينخفض تدريجيا حتى اضـطررت فـي نهاية الأمر أن أسير على ركبي ويديّ. وهكذا تابعت حبوي لاهثًا ومتألمًا من صلادة أرض الممر تحت ركبي وخشونتها.

وصلت في النهاية إلى ردهة شديدة الاتسـاع مضـاءة بضوء خافت. ارتفعت الترنيمات تدريجيا بحيـث صـارت

أعلى من صوت الموسيقى. بعد لحظات ظهر أربعة رجال لملامحهم قسمات طفولية، عراة إلا مما يخفي عوراتهم، وهم يتراقصون مع الأنغام. ثم ظهرت أربع فراشات راحت تحلق حولهم كأنما تبادلهم الرقص، وسرعان ما تحولن إلى أربـع حوريات ذوات جمال صاعق، عاريات تمامًا. أسندت ظهري لأقرب جدار وجلست مبهورًا أتابع الرقص.. الـذي انتهـى بتحول الجميع إلى فراشات مرة أخرى. وقبل أن يختفوا كان الصوت الملائكي يتردد في أرجاء المكـان.؟. «الواهمـون لا مكان لهم في كهف العشاق». وشـعرت بالإعيـاء مـرة أخرى.. ولكني لم أستطع مقاومة النعاس هذه المـرة حتـى غفوت.

* * *

استيقظت على صوت نشيج مكتوم. نهضت متثاقلاً وأنا أحاول الاهتداء إلى مصدر الصوت حتى وقع بصري علـى فتاة كالحلم.. آثار الدموع لا تزال تبلـل العينـين شـديدتي الحزن.

(فتحت عيني في الصباح فالتقيت بعينيك اللتين كانتـا تشعان حنانًا يغمرني. كنا عاريين لم نزل. وجهك الخمـري

الناعم يدعوني لتقبيل الخد الأسيل قبل التوقف عند الشفتين الصغيرتين المكتنزتين..).

اقتربت منها قليلاً وأنا أنادي عليها.. هند.. هند. لكنهـا ظلت تحدق في أعلى السقف كأنها تطالع ملاكـًا أو تشـكو أحزانها لطاقة نور في السماء.. نفس النظرة ونفس الملامح.. ونفس الشكوى.. كأنما كانت عيناها تنطقان: أشكوك للسماء!

(.. قلت لي هامسة: أحبك.. وطبعت على شفتيك قبلـة قبل أن نتضام في سكون صامتين حيث لا حاجة إلى الكلام.. وعندما نهضت ووجدت ذراعيك يلتفان حول خصري قبل أن تطبع شفتاك أسفل ظهري قبلة – هل أنساها أبدا؟! – التفت إليك أقبل شفتيك قبل أن أنهض قائما وأنا أضع يدي علـى سوءتي أخفيها عنك – ألسنا من الجنة لتونا خـارجين؟ - بينما دسست أنت رأسك تحت الدثار.. وكنت أعـرف أنـك تبكين..).

حاولت أن أهزها فبدت جامدة كالصخر. كأنها قدت من حجر. ولكنها كانت تسدد إليّ نظراتها التـي كـاد قلبـي أن ينخلع من شدة الحزن البادي فيها. حاولت أن أمسح الـدموع

عن وجهها فصارت نظراتها شديدة القسوة. تراجعت وأنا أتحسس البلل على إبهامي. قبل أن أفاجأ بظهور «الصلت»..
فصرخت:

- آه.. أين أنت؟ أنقذني يا صلت!

بدت ملامح وجهه محايدة وكأنها لا تحمل أي تعبير ونبرات صوته شديدة الهدوء:

- ماذا حدث؟
- أنا لا أعرف ماذا أفعل في هذه المتاهة. كلما أوغلت السير كلما أحسست أني أبحث عن سراب. وكلما تصورت أنني وجدت من أبحث عنها أكتشف أنني لم ألتقِ سوى بالأوهام.
- والآن؟!
- ها هي حبيبتي تجلس أمامي. ولكنها لا تتحرك ولا تجيب عليّ بشيء.
- هل أنت على يقين بأنها من تبحث عنها؟
- أنا لم يعد لدي يقين.. لكنها هي.. هي.
- ألأنت الذي تسبب في أحزانها هذه؟

- لا.. لا.. أنا.. فقط.. يعني.. أنا لم أقصد شيئًا.. لم أشأ إيلامها قطعًا..

- وماذا تريد مني؟

- لا صوت لا. ألم تفهم أنها كالحجر؟

- كالحجر؟! هل تعرفها؟

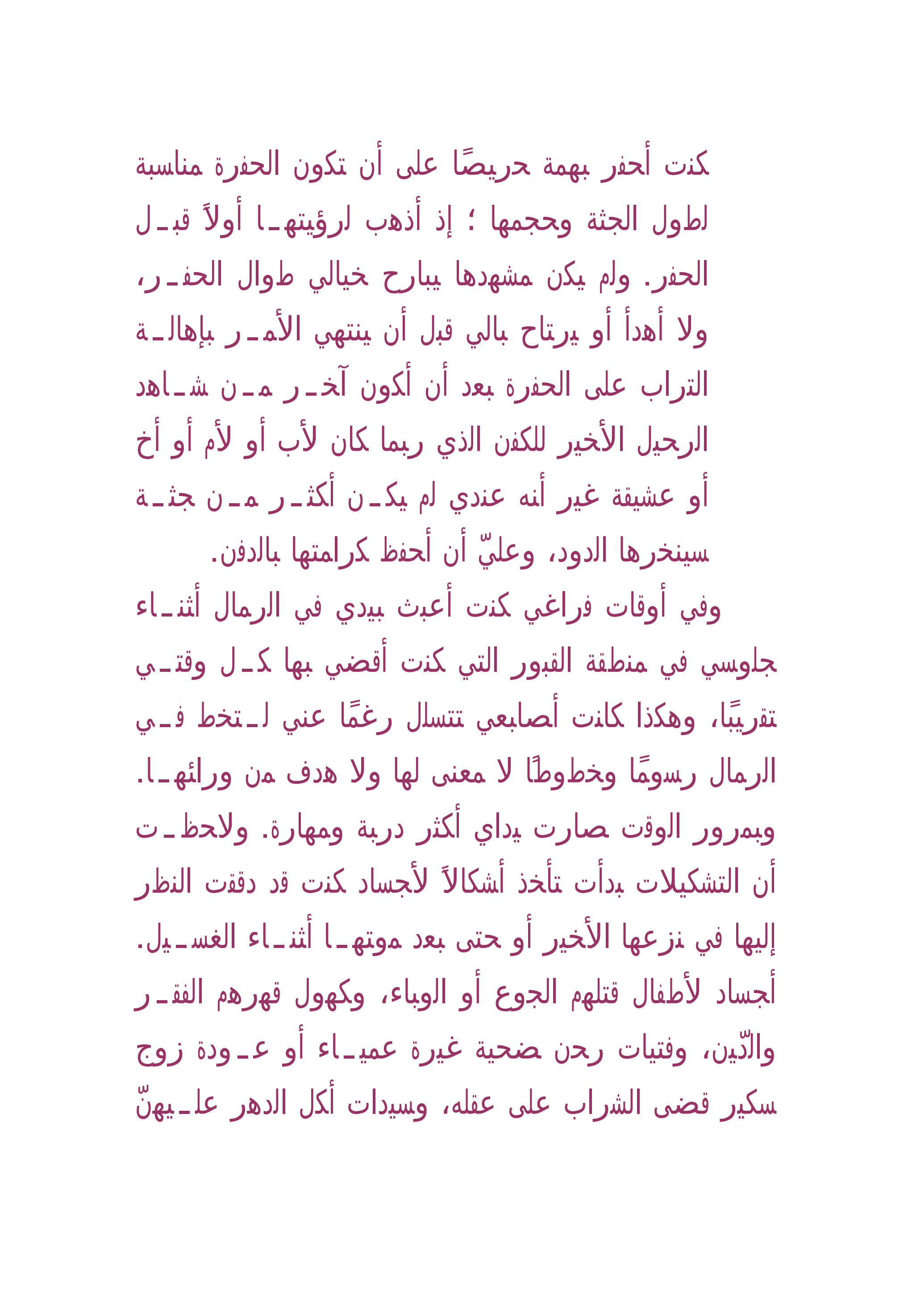
- هذه عاشقة عصفت بقلبها نزوة عشيق طائش. جـاءت تبحث عنه في هذا الكهف. ولكنها يئست فاكتفت بـأن تكون ما فعله بها.. ارتحق روحها حتى جفت وصارت خاوية وجامدة كالحجر.

قلبي يرتجف. أشعر بالهلع. أقاوم غصة مفاجئة. بينمـا «الصات» يسدد نظره إليّ قبل أن يقول:

- لم يعد بإمكانك أن تفعل لها شيئًا علـى كـل حـال. فتعالَ.. اسمع ما سأقصه عليك علك تستفيد منه شيئًا.

انتشلتني عينا «الصات» من تأملي للغضون التي تحيط بهما إذا أنه كان يسدد نظره إليّ بقوة وهو يقـول بصـوت ثابت:

- قبل أن أعرف الطريق إلى هذا الكهف كنـت حفـار قبور. فهذا هو عملي الذي ورثته عن أجدادي تباعًـا.



كنت أحفر بهمة حريصًا على أن تكون الحفرة مناسبة لطول الجثة وحجمها ؛ إذ أذهب لرؤيتهـا أولاً قبـل الحفر. ولم يكن مشهدها يبارح خيالي طوال الحفـر، ولا أهدأ أو يرتاح بالي قبل أن ينتهي الأمـر بإهالـة التراب على الحفرة بعد أن أكون آخـر مـن شـاهد الرحيل الأخير للكفن الذي ربما كان لأب أو لأم أو أخ أو عشيقة غير أنه عندي لم يكـن أكثـر مـن جثـة سينخرها الدود، وعليّ أن أحفظ كرامتها بالدفن.

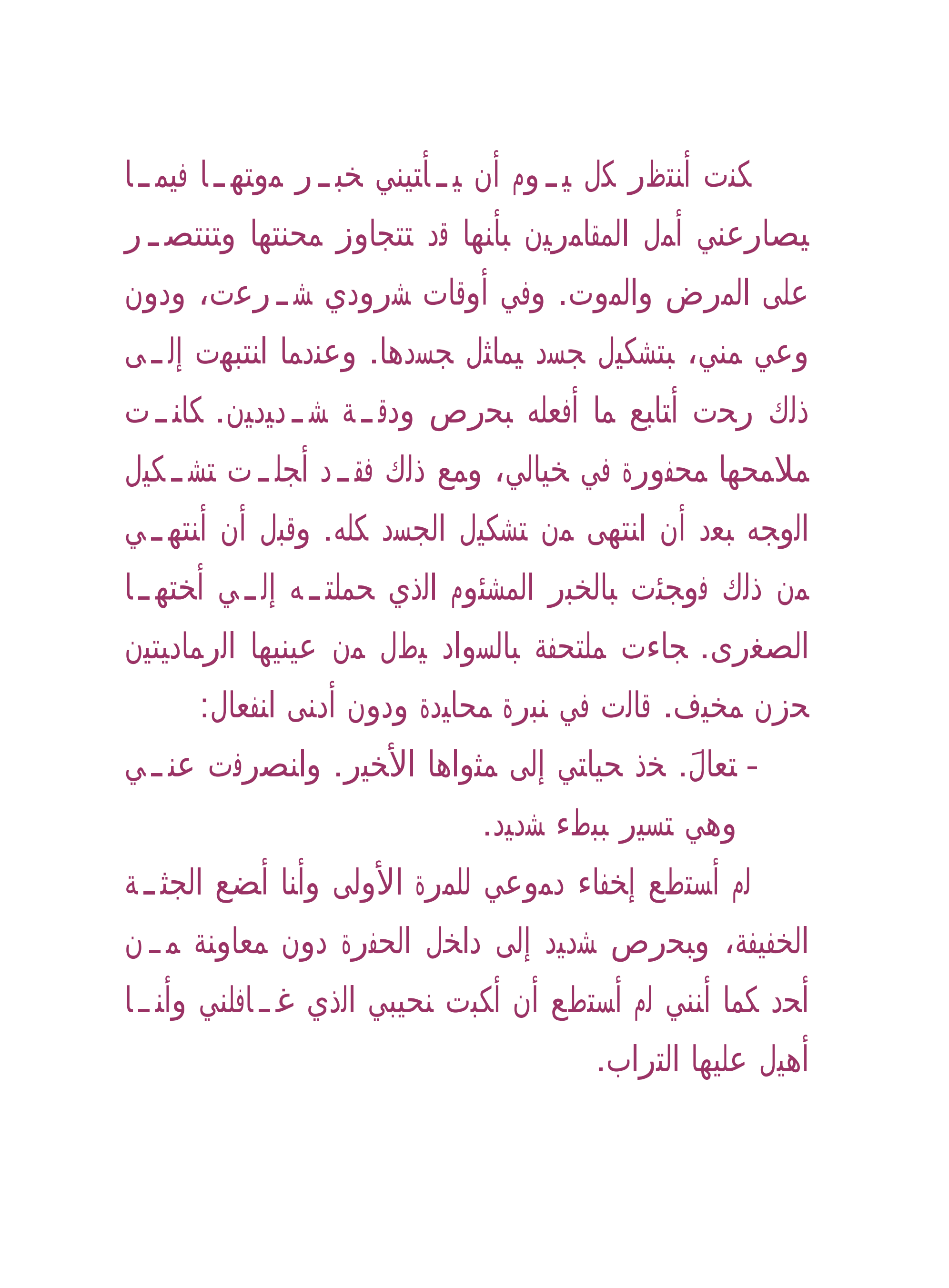
وفي أوقات فراغي كنت أعبث بيدي في الرمال أثنـاء جلوسي في منطقة القبور التي كنت أقضي بها كـل وقتـي تقريبًا، وهكذا كانت أصابعي تتسال رغمًا عني لـتخط فـي الرمال رسومًا وخطوطًا لا معنى لها ولا هدف من ورائهـا. وبمرور الوقت صارت يداي أكثر دربة ومهارة. ولاحظـت أن التشكيلات بدأت تأخذ أشكالاً لأجساد كنت قد دققت النظر إليها في نزعها الأخير أو حتى بعد موتهـا أثنـاء الغسـيل. أجساد لأطفال قتلهم الجوع أو الوباء، وكهول قهرهم الفقـر والدّين، وفتيات رحن ضحية غيرة عميـاء أو عـودة زوج سكير قضى الشراب على عقله، وسيدات أكل الدهر علـيهنّ

وشرب ولم يبقَ فيهن إلا هياكل عظيمة مغطاة ببعض الأوردة التي تظهر بالكاد خلف جلد الجسد الشاحب الممتلئ بالتجاعيد والترهلات.

دُعيت يومًا إلى منزل في أقصى القرية. أدخلني أهل الدار، الذين فاضت وجوههم بحزن قاتم كئيب، إلى غرفة بعيدة عن باقي غرف الدار.

دخلت الغرفة ولم أشمّ رائحة الموت التي كنت قد اعتدتها في مثل هذه الحالات. وجدت جسدًا نحيلاً ممددًا على الفراش الذي توسط الغرفة، وعندما وقع بصري على الوجه تقلصت روحي، فلم يكن هذا إلا وجه ملاك كريم. وحقًا أنني لم أر في مثل حسن هذه الفتاة طيلة حياتي. ولم يستطع نحول وجهها وشحوبه إخفاء حسنها، وحتى عيناها الرماديتان، اللتان غارتا قليلاً في محجريهما بفعل المرض، تألقتا بنظرة طمأنينة مدهشة وهي تتطلع إلينا بهدوء.

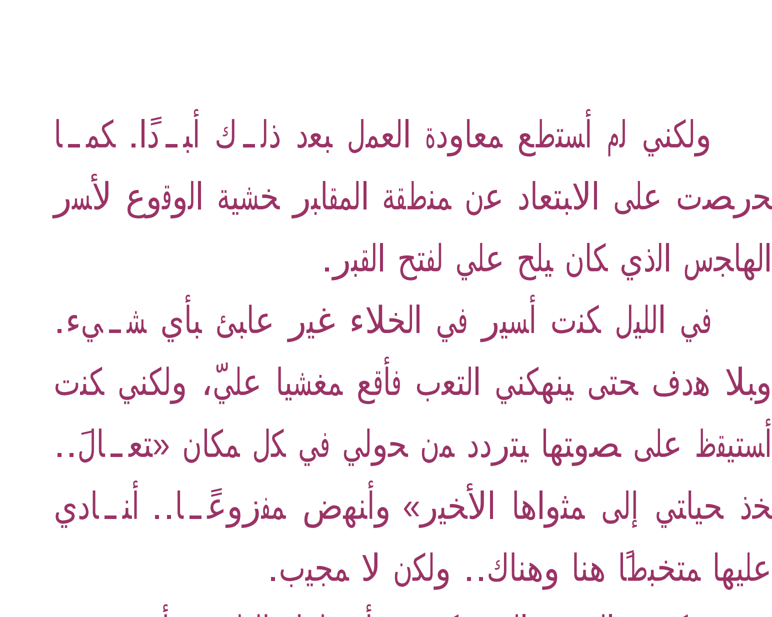
خرجت من الدار مسحورًا. ولم تطاوعني يداي على الحفر لفترة طويلة. لكن خوفي القديم تغلب عليّ في آخر الأمر، فليس هناك أسوأ مما يمكن أن يفعله الموت بجسدها.



كنت أنتظر كل يوم أن يأتيني خبر موتها فيما يصارعني أمل المقامرين بأنها قد تتجاوز محنتها وتنتصر على المرض والموت. وفي أوقات شرودي شرعت، ودون وعي مني، بتشكيل جسد يماثل جسدها. وعندما انتبهت إلى ذلك رحت أتابع ما أفعله بحرص ودقة شديدين. كانت ملامحها محفورة في خيالي، ومع ذلك فقد أجلت تشكيل الوجه بعد أن انتهى من تشكيل الجسد كله. وقبل أن أنتهي من ذلك فوجئت بالخبر المشئوم الذي حملته إلي أختها الصغرى. جاءت ملتحفة بالسواد يطل من عينيها الرماديتين حزن مخيف. قالت في نبرة محايدة ودون أدنى انفعال:

- تعالَ. خذ حياتي إلى مثواها الأخير. وانصرفت عني وهي تسير ببطء شديد.

لم أستطع إخفاء دموعي للمرة الأولى وأنا أضع الجثة الخفيفة، وبحرص شديد إلى داخل الحفرة دون معاونة من أحد كما أنني لم أستطع أن أكبت نحيبي الذي غافلني وأنا أهيل عليها التراب.



ولكني لم أستطع معاودة العمل بعد ذلك أبدًا. كما حرصت على الابتعاد عن منطقة المقابر خشية الوقوع لأسر الهاجس الذي كان يلح علي لفتح القبر.

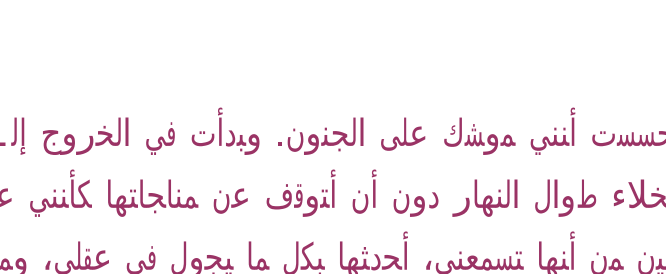
في الليل كنت أسير في الخلاء غير عابئ بأي شيء. وبلا هدف حتى ينهكني التعب فأقع مغشيا عليّ، ولكني كنت أستيقظ على صوتها يتردد من حولي في كل مكان «تعالَ.. خذ حياتي إلى مثواها الأخير» وأنهض مفزوعًا.. أنادي عليها متخبطًا هنا وهناك.. ولكن لا مجيب.

تذكرت النحت الذي كنت بدأته لها بالطين. فأسرعت إليه.. وتابعت عملي في تشكيل القدمين. وعندما انتهيت صرخت فزعًا إذ إن الجسد كان مشابهًا تمامًا لذلك الذي رأيته ممددًا هناك على الفراش. بعدها شرعت في نحت الوجه. لاحظت أن يديّ تتحركان بشكل غريب كأنما تمتثلان لأوامر قوى خفية فلا تزيد قوتها ولا تقل عما يتطلبه أن يبدو كل شيء متماثلاً. العينان الواسعتان والأنف الدقيق والشفتان المرسومتان بعناية، والذقن العريض قليلاً على رقته. وعندما انتهيت ودققت النظر فيما صنعت يداي قفزت مبتعدًا عنها.

فقد بدا مطابقًا لها تمامًا، حتى نظرة العينين اللتين كانتا تتطلعان إليّ بنفس الهدوء وتبعثان الشعور بالطمأنينة.

سرت متجهًا إلى الخلاء حتى أعياني التعب. شيدت كوخًا من الخشب والطين. شرعت بعد ذلك في نقل الجسد الذي صنعته من الطين إلى هناك. أعددت بما تيسر لي من أعشاب الصحراء والقش الذي أحضرته من القرية فراشًا مددت الجسد عليه، أتأمله فيما تجيش في أعماقي أحزان لم أعرف مثلها في حياتي، وتناوشني عواطف كانت تفيض بالرغم مني فتدفعني لمحادثتها وكأنها مخلوق حقيقي. حكيت لها كل شيء عن حياتي وأمي البائسة التي فقدتها في طفولتي، وعن جدي الذي كان يحفر القبور بيديه دون الاستعانة بأي أدوات حتى أطلقوا عليه اسم «الغراب»، وأختي التي سحروها فراحت تقتل أولادها تباعًا حتى اضطر والدي إلى قتلها وصارت تظهر له في أحلامه كل ليلة حتى مات.

ولكنها لم ترد بشيء.. فقط تنظر إليّ نفس النظرة وبنفس الهدوء مما كان يدفعني للصراخ متوسلاً إليها أن تنطق بأي شيء أو على الأقل أن تتوقف عن النظر إليّ.



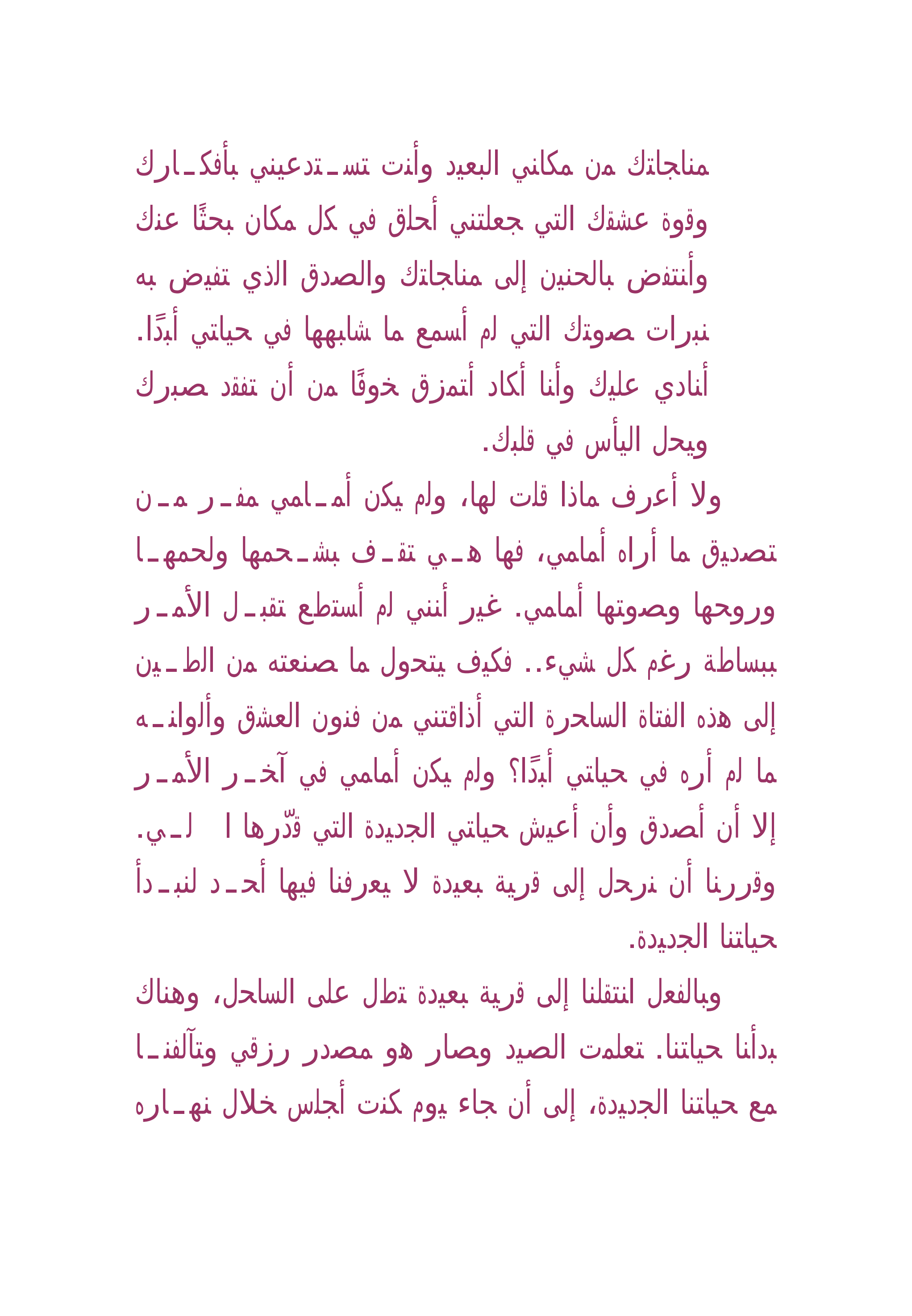
أحسست أنني موشك على الجنون. وبدأت في الخروج إلـى الخلاء طوال النهار دون أن أتوقف عن مناجاتها كأنني على يقين من أنها تسمعني، أحدثها بكل ما يجول في عقلي، ومـا أستطيع أن أستدعيه في ذاكرتي. وفوجئت بأن صوتها بـدأ يتسلل إليّ ويحيط بي من كل اتجاه ويتردد بلا انقطاع ممـا يجعلني أفكر في أن أقتل نفسي للخلاص من هذا الوسـواس «تعالَ.. خذ حياتي إلى مثواها الأخير..».

قلت إن الحل الوحيد أن أعود وأحطم ما صنعته فينتهي كل هذا العبث.

دخلت الكوخ اقتربت منها لألقي عليه نظرة أخيرة قبـل أن أبدأ في تحطيمها. تأملت عينيها فراعني البريـق الـذي ينبعث منهما، ولاحظت أن لون الطين البني الداكن قد تحول إلى لون أبيض صافٍ كالحليب. وعندما لمست يديها هـالني أنهما ناعمتان كالحرير.

ألقيت بنفسي بعيدًا عنها حتى ارتطمت بجدار الكـوخ، ابتسمت إليّ قبل أن أسمع صوتها هامسًا كالحلم:

- لا تخف يا صلت. ها أنا ذي قد عاودتني الحياة التـي بعثتها أنت فيّ من روحك وفرط حبك. كنـت أسـمع



مناجاتك من مكاني البعيد وأنت تستدعيني بأفكارك وقوة عشقك التي جعلتني أحلق في كل مكان بحثًا عنك وأنتفض بالحنين إلى مناجاتك والصدق الذي تفيض به نبرات صوتك التي لم أسمع ما شابهها في حياتي أبدًا. أنادي عليك وأنا أكاد أتمزق خوفًا من أن تفقد صبرك ويحل اليأس في قلبك.

ولا أعرف ماذا قلت لها، ولم يكن أمامي مفر من تصديق ما أراه أمامي، فها هي تقف بشحمها ولحمها وروحها وصوتها أمامي. غير أنني لم أستطع تقبل الأمر ببساطة رغم كل شيء.. فكيف يتحول ما صنعته من الطين إلى هذه الفتاة الساحرة التي أذاقتني من فنون العشق وألوانه ما لم أره في حياتي أبدًا؟ ولم يكن أمامي في آخر الأمر إلا أن أصدق وأن أعيش حياتي الجديدة التي قدّرها ا لي. وقررنا أن نرحل إلى قرية بعيدة لا يعرفنا فيها أحد لنبدأ حياتنا الجديدة.

وبالفعل انتقلنا إلى قرية بعيدة تطل على الساحل، وهناك بدأنا حياتنا. تعلمت الصيد وصار هو مصدر رزقي وتآلفنا مع حياتنا الجديدة، إلى أن جاء يوم كنت أجلس خلال نهاره

في السوق أبيع ما رزقني ا   به من فيض البحر حتى فاجأني صوت صراخ كان يقترب مني تدريجيا.. «أنت الصلات.. أنت الساحر.. لعنة ا   عليك.. أنت الذي غيبت «محبوبة».. أنت الذي سحرتها يا كافر.. أين هي؟ أين؟

«كان هذا هو أحد إخوتها. وتصلب الدم في عروقي وقد فاجأني ظهوره في ذلك البلد البعيد. وبعد مناوشات ومعركة بالأيدي وشد وجذب وصخب وسط زحام السوق الذي التف كل من به حولنا استطعت الهرب.. أسرعت إلى «محبوبة».. وهربت معها لا نعرف أين نذهب. عشنا في أحد القوارب عدة أيام. ونمنا في العراء بالصحراء ليالٍ لا أعرف كيف احتملنا قسوتها. وتنقلنا بين مداخل الكهوف وعلى ضفاف الوديان حتى استطعنا في النهاية أن نصل إلى تل عالٍ اكتشفنا أن أهله قد هجروه، وقررنا أن نبقي به حتى نرى ما يكون. وبمرور الوقت بدأت في الهبوط بالنهار إلى الوادي لاصطياد ما قد يجود به الوادي والعودة ليلاً وهكذا. إلى أن عدت يومًا لأفاجأ بها جالسة تحدق إليّ بفزع. ناديت عليها فلم ترد. لمستها.. كانت باردة كالثلج وملمس جسدها صلبًا كالصخر. حاولت ما فعلته سابقًا غير أن شيئًا لم يجدِ، ولم

تفلح كل مناجاتي لأيام وليالٍ متعاقبة أن تغيـر مـن الأمـر شيئًا.. وأدركت أنهم سحروها. كاد الحزن يقتلني غما عليهـا وأتيت بها إلى هنا.. إلى هذا الكهف. لا تندهش.. هـي الآن تجلس في هدوء تمامًا كما هذه الفتاة التي تجلس أمامك.. هل تريد أن تراها..؟ تعالَ.. تعالَ معي..

سرت خلف «الصلت» وكأنني قد نومـت مغناطيسـيا وفقدت إرادتي نهائيا.. كان كل شيء يبدو غريبًا إلى الدرجة التي جعلتني أشعر بفزع حقيقي وتختلط كل الأمـور علـيّ ويتشوش ذهني.

اقتربنا من الردهة الواسعة التي تتوسطها فتـاة نحيفـة شديدة الجمال تنظر إلينا بهدوء رغم الفزع الذي يطـل مـن عينيها. ارتفعت ترنيمات الكهف إلى أقصى حـد لهـا، بـدأ «الصلت» يضحك بشكل هستيري. ترتفع ضحكاته تدريجيا.. حدقت في عيني الفتاة أمامي مذهولاً وقد ارتفعـت نبـرات صوتها لتعلو كل الأصوات الأخرى: (الواهمون.. لا مكـان لهم في كهف العشاق).

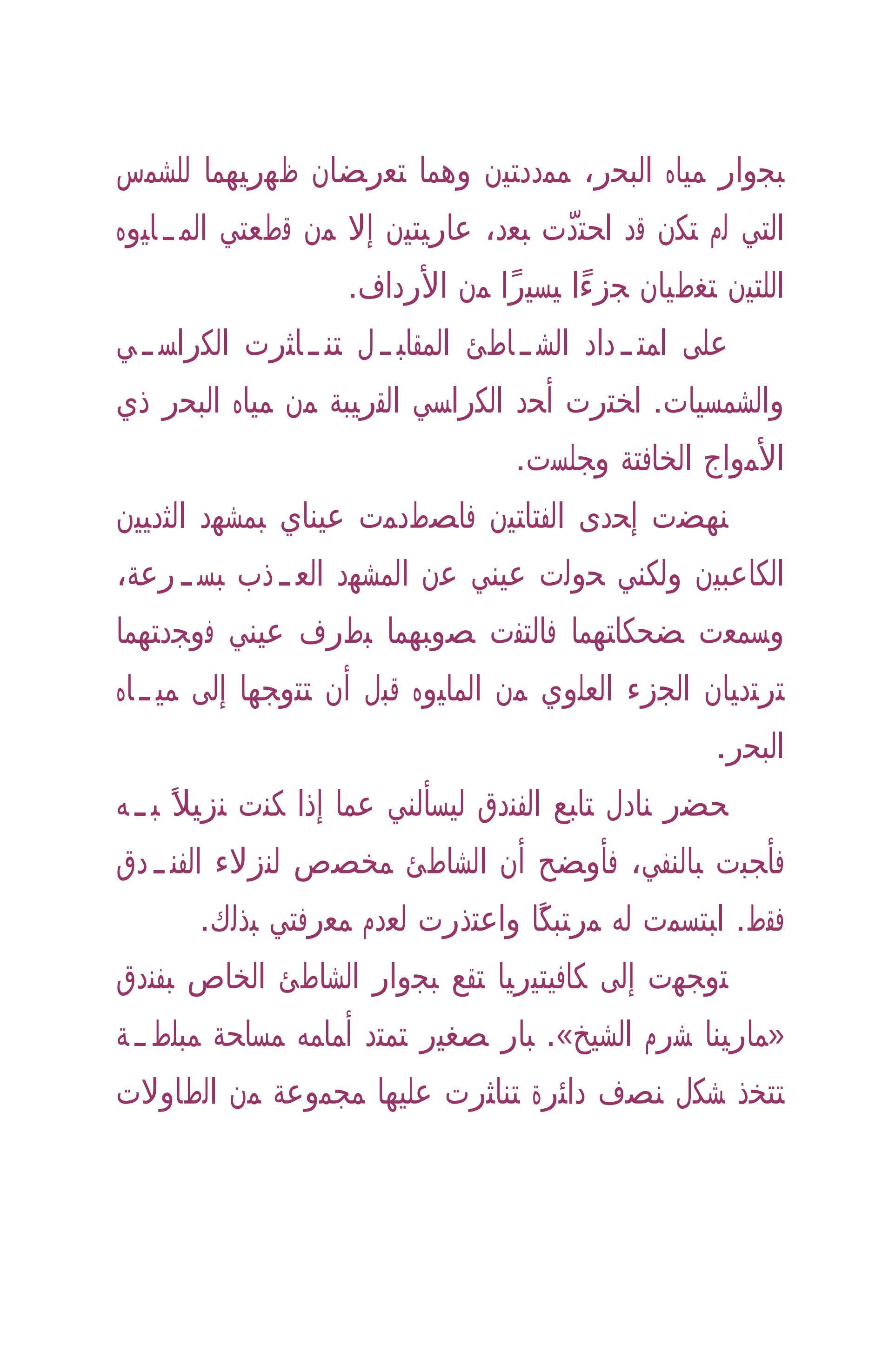
- ٦ -

انتشلتني الطرقات المتتابعة علـى البـاب مـن النـوم فانتفضت. أتاني صوت «محمد» من خلف الباب. نظرت إلى الساعة. أشارت إلى الثامنة. سمعت صوتي محشـرجًا وأنـا أتمتم: شكرًا يا «محمد».

التقطت سيجارة وتناولت علبة الثقاب متثاقلاً. وضـعت المنشفة على كتفي وخرجت أقصد الحمام. عندما جلست على الإطار البلاستيكي أشعلت السيجارة. عندما انتهيـت خلعـت ثيابي ووقفت تحت المياه الباردة.

نزلت إلى المطعم. تناولت إفطاري بدون شهية وشربت شايًا قبل أن أغادر بيت الشباب قاصدًا الشاطئ وحملت فـي يدي كتابًا.

عندما وصلت إلى الشاطئ توجهت إلى فندق «هيلتـون الفيروز». تذكرت في اللحظة الأخيرة أن «خالد» لن يحضر قبل المساء. كان الشاطئ خاليًا كعادته في هذا الوقـت مـن الصباح الباكر إلا من فتاتين افترشتا منشفتين على الرمـال



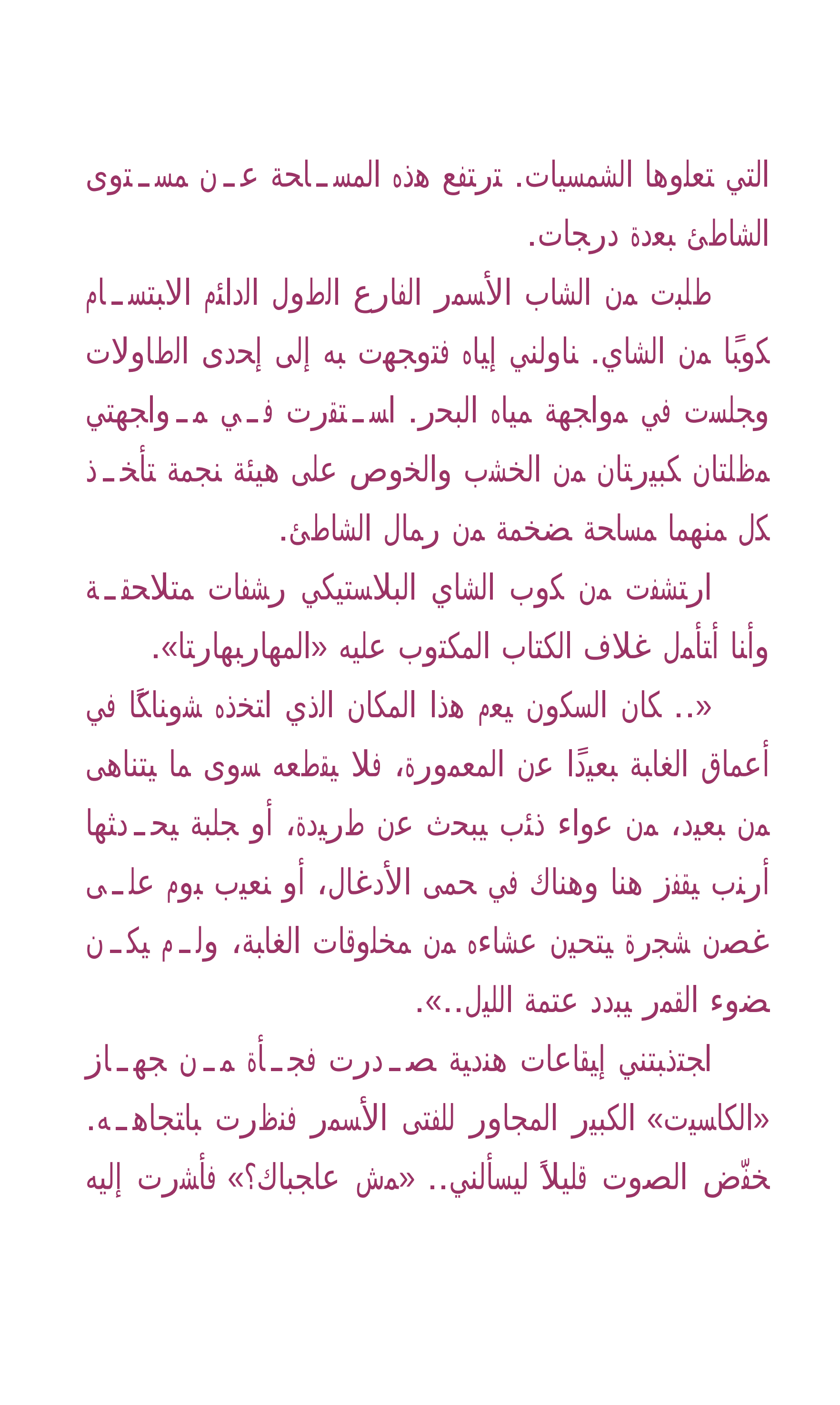
بجوار مياه البحر، ممددتين وهما تعرضان ظهريهما للشمس التي لم تكن قد احتدّت بعد، عاريتين إلا من قطعتي المايوه اللتين تغطيان جزءًا يسيرًا من الأرداف.

على امتداد الشاطئ المقابل تناثرت الكراسي والشمسيات. اخترت أحد الكراسي القريبة من مياه البحر ذي الأمواج الخافتة وجلست.

نهضت إحدى الفتاتين فاصطدمت عيناي بمشهد الثديين الكاعبين ولكني حولت عيني عن المشهد العذب بسرعة، وسمعت ضحكاتهما فالتفت صوبهما بطرف عيني فوجدتهما ترتديان الجزء العلوي من المايوه قبل أن تتوجها إلى مياه البحر.

حضر نادل تابع الفندق ليسألني عما إذا كنت نزيلاً به فأجبت بالنفي، فأوضح أن الشاطئ مخصص لنزلاء الفندق فقط. ابتسمت له مرتبكًا واعتذرت لعدم معرفتي بذلك.

توجهت إلى كافيتيريا تقع بجوار الشاطئ الخاص بفندق «مارينا شرم الشيخ». بار صغير تمتد أمامه مساحة مبلطة تتخذ شكل نصف دائرة تتناثر عليها مجموعة من الطاولات



التي تعلوها الشمسيات. ترتفع هذه المساحة عن مستوى الشاطئ بعدة درجات.

طلبت من الشاب الأسمر الفارع الطول الدائم الابتسام كوبًا من الشاي. ناولني إياه فتوجهت به إلى إحدى الطاولات وجلست في مواجهة مياه البحر. استقرت في مواجهتي مظلتان كبيرتان من الخشب والخوص على هيئة نجمة تأخذ كل منهما مساحة ضخمة من رمال الشاطئ.

ارتشفت من كوب الشاي البلاستيكي رشفات متلاحقة وأنا أتأمل غلاف الكتاب المكتوب عليه «المهاربهارتا».

«.. كان السكون يعم هذا المكان الذي اتخذه شوناكًا في أعماق الغابة بعيدًا عن المعمورة، فلا يقطعه سوى ما يتناهى من بعيد، من عواء ذئب يبحث عن طريدة، أو جلبة يحدثها أرنب يقفز هنا وهناك في حمى الأدغال، أو نعيب بوم على غصن شجرة يتحين عشاءه من مخلوقات الغابة، ولم يكن ضوء القمر يبدد عتمة الليل..».

اجتذبتني إيقاعات هندية صدرت فجأة من جهاز «الكاسيت» الكبير المجاور للفتى الأسمر فنظرت باتجاهه. خفّض الصوت قليلاً ليسألني.. «مش عاجباك؟» فأشرت إليه

بإبهامي الذي رفعته بعد أن ضممت باقي الأصابع وهـزت يدي مرتين. ابتسم وهو يضع أمامه زجاجتي بيرة في حماس قبل أن يوليني ظهره وهو يتمايل مع الموسيقى المناسبة.

(.. الفتاة السمراء ذات الشعر الأسود الفاحم المنسدل حتى ردفيها. ملامحها تشبه «فيروز». انسـاب اللحـن ذو الإيقاع الهندي فتسللت من أحضاني. اكتست عيناها بنظـرة غريبة حالمة.. وادعة.. بينما تلتمعان ببريق أخـاذ، بـدت كأنها مجذوبة بقوة خفية وصوت لا يسمعه غيرها إلى عالم له عندها سحره الخـاص. الموسـيقى صـارت صـاخبة والصوت الأنثوي المختلط بها يتفجر بشجن خاص لا أفهـم منه شيئًا. الفتاة تبتسم للملاك الماثل أمامها في عذوبـة.. تتمايل. ترفع شعرها بإحدى ذراعيها.. تدور في انسـيابية. تخلع ثيابها بنشوة حتى آخر قطعة وهي تتراقص في ولـه وتتحسس جسدها في عشق دون أن يتوقف الرقص الـذي بدا متناغما كأنما يذوب الجسد تماما في الألحان ليكونا لحنًا واحدا أسطوريا. الجسد الخمري المتناسق تلتمـع نعومتـه بانعكاس الضوء الخافت عليه. تنتظم الخطوات الرشيقة مع الإيقاع في تناغم وانسيابية. يتداخل الناي الحزين مع اللحن

الصاخب الإيقاع فترتجف روحي بينما ينساب الجسد يمنـة ويسرة في دلال. تنسـال دمعتـان لا ألمحهـا إلا عنـدما تترقرقان على الوجنتين. تلقي بنفسها على الأريكة. تتكـور وهي تسند رأسها على كتفها.. ويهتز الجسد الآن فقط على إيقاع داخلي.. لنشيج مكتوم.. كأنـه يخفـي مـا لا يمكـن معرفته أبدا..).

انتبهت على صوت صراخ أنثوي. رأيت شخصًا يلوح من وسط مياه البحر. اختفى الصوت عندما ارتفـع صـوت الموسيقى مرة أخرى. خلعت قميصي وألقيت بنفسـي فـي المياه حتى اقتربت منها. كانت تلهث وهي تئن أنات متتاليـة وعلى وجهها ملامح ألم شديد. أخبرتني بأن إحـدى قـدميها تمزقت بسبب ارتطامها بالشعب المرجانيـة، جـذبتها حتـى الشاطئ. نظرت إلى قدمها اليمنى فوجدتها مهترئة من شـدة المتمزق بينما يتدفق الدم بغزارة أصابتني بالفزع، فأسـرعت أركض باتجاه الشاب الأسمر الذي كان يرقبني مـن بعيـد، سألته إذا ما كان لديه قطن وشاش فقال إنه يحـتفظ بالقليـل منها للطوارئ. أعطاني كيسًا من القطن ولفافة شاش أسرعت بهما مرة أخرى إلى الفتاة. طلبت منها أن تضع قدميها فـي

مياه البحر قبل أن أبدأ في تضميد الجرح بالقطن وأتبعت ذلك بلاف قدمها بضمادات الشاش.

اتكأت على كتفي وهي تقفز على قدم واحدة حتى وصلنا إلى حيث كنت أجلس. انتزعت ابتسامة من ملامـح وجههـا المكتسية بالألم وهي تلهث:

- أشكرك جدا.. مش عارفة من غيرك كنت ها أعمـل إيه..

سألتها إن كانت تفضل أن تشرب شيئًا فطلبـت قهـوة، وطلبت أنا أيضًا قهوة.

كانت ترتدي «مايوهًا» أزرق من قطعة واحدة وكنـت أحاول جاهدًا أن أتذكر أين رأيتها من قبل؟ العينان العسليتان الواسعتان والبشرة القمحية. وتذكرت. قلت لها:

- إحنا اتقابلنا قبل كده؟

ضيقت عينيها قليلاً ورفعت أنفها وهـي تبتسـم كأنهـا تحاول أن تتذكر.. قبل أن تهز رأسها دليلاً على عدم تذكرها فقلت:

- في الاستراحة. بالسويس.

- آه.. أيوه.. أيوه افتكرت.

- أمال فين صاحبتك؟

- لسه نايمة.. أنا باحب أنزل الصبح بدري أتمشى شوية وبعدين أنزل البحر.

- جميل.. بس على فكرة أنا عندي إحساس إنـك مـش مصرية رغم إنك بتتكلمي مصري كويس.

ضحكت وهي تقول:

- طيب.. عرفت إزاي؟

- مش عارف.. إحساس.. أو يمكن شكلك..

- إزاي يعني؟

- يعني لما شفتك في الاستراحة قلت الأول إنك أجنبيـة بس ما كنتش متأكد. يعني افتكرت إنك ممكن تكـوني جزائرية.. مغربية.. حاجة زي كده.

- طيب ودلوقت؟

- مش عارف.. ممكن تكوني نص مصرية ونص حاجة تانية.. أوروبا مثلاً..

- لا يا سيدي.. أنا أصلاً عُمانية.

- عُمانية؟

- أيوه.. ما تعرفش عُمان ولا إيه؟

- لا.. أعرفها.. وأعرف أنها بلد جميلة جدا.. بيقولوا إن الطبيعة فيها مدهشة.

- أيوه.. دا صحيح. بس ماما فرنسية.

- آه يعني زي ما أنا قلت فعـلاً.. بـس إزاي بتعرفـي تتكلمي مصري كده؟

- يعني.. أنا في المدرسة كان معظم اللي كانوا بيدرسوا لنا مصريات وكما كان لي أصحاب كتير من مصر.

- فعلاً؟

- أيوه..، أنا باحب المصريين جدا..

- وجاية «شرم» ليه.. سياحة ولا شغل؟

- لا.. أنا جاية إجازة..

- وانتِ عايش في عُمان ولا في فرنسا؟

- لا.. أنا دلوقت عايشة في فرنسا.

- بتدرسي؟

- أيوه.. بحضر دراسات في الأدب الفرنسي.

- هايل..

- وأنت؟

- أنا أصلاً كنت باشتغل رسام.. يعني رسام كاريكـاتير في جرنال. وباعمل أنا شغلي الخاص.

- وجيت هنا ليه؟

- .. برضه حاجة كده زي إجازة.. قرفت من الحياة في القاهرة. الزحمة والروتين ويعني أسباب خاصة تانية.. فقررت أني آجي هنا.. أصل أنا لي واحـد صـاحبي بيشتغل هنا.

وقع بصري في أثناء حديثي على ما بين نهديها. فحدقت بعيني بثبات بينما رفعت إحدى يديها وهي تفتعل أنها تحـك رقبتها فارتبكتْ.. وتوهج وجهي قليلاً. أشرت إلى الـ «تـي شيرت» الملقى على الكرسي والذي كنت قد خلعته قبـل أن أنزل إلى البحر وقلت لها:

- ممكن تلبسي الـ «تي شيرت» ده. الشمس بدأت تشـد شوية.

فنظرت باتجاهه مترددة ثم قالت:

- لا.. لا.. مافيش مشاكل.

قلت لها:

- وانتِ في عُمان بقه بتلبسي إيه؟

ابتسمت وهي تقول:

- إيه إزاي يعني؟

ثم انفجرت ضاحكة وهي تشير بإبهامها على امتداد جسدها.

- لا.. مش كده طبعًا.. بس عمومًا في عُمان الأمور مش زي السعودية.. يعني عادي. أنا بلبس جيبات وفساتين وبناطيل عادي. وبدون حجاب. لكن البنات لسه ما اتخلصتش من التقاليد وكتير منهم بيلبسوا عبايات وحتى الشباب بيلبسوا الزي التقليدي.

- آه.. يعني مش زي السعودية بس مش لدرجة الكويت مثلاً.

- بالضبط.. بس تعرف أنا اكتشفت إن بلدكم جميلة فعلاً..

- أشكرك. إنتِ أول مرة تيجي هنا؟

- أيوه.

- وأنا كمان.

ضحكت وهي تقول:

- قصدك جنوب سينا؟

- أيوه.. ما كنتش متخيل إن في مصر أماكن بالجمـال ده. بيقولوا إن «دهب» و«طابا» كمان أماكن جميلة.. رحتي؟

- لا.. لسه.. لكن عاوزه أروح.

- الواحد بيحس هنا إنه كأنه انتقل من مصر إلـى بلـد تاني.

- أنا مريت على القاهرة لمدة يومين قبل ما آجي هنـا.. بس انطباعك حقيقي.. يعني الحياة هنا مختلفة.. يمكن أبسط وفيها حرية أكتر.

أحضر النادل القهوة مبتسمًا كعادته قبل أن يعود أدراجه وهو يتحرك بسرعة، أومأت باتجاهه وهي تمسك بقدح القهوة البلاستيكي بعد أن ارتشفتْ منه رشفة قائلة:

- شخص غريب شويه.. مش كده؟

- أيوه.. بس لطيف.. مش عارف جايب منين الإحساس الغريب ده بالسعادة؟

التقيت عينانا للحظة. ولكنها كانت كافية لألمـح طيـف حزن شاحب أطل من عينيها كومضة. قالت:

- مش عارفة ليه ما باقدرش أصدق ملامح الناس. بحس دايمًا إن فيه وراها حزن مافيش أي حد تاني يقدر يحسه أو يفهمه.

ابتسمتُ لها قبل أن أطبق شفتي على بعضهما وأهز رأسي مؤيدًا. وانتبهت فجأة أنني لم أعرف اسمها حتى الآن فقلت لها:

- تخيلي إني ما عرفتش اسمك لغاية دلوقت!

ضحكت وهي تقول:

- أيوه.. صحيح.. أنا اسمي «بتول»، وانتَ؟

فأخبرتها عن اسمي.

سمعت فجأة نداء لصوت أنثوي غير بعيد عنا وباقترابه تدريجيا اكتشفتُ أنها صديقة «بتول» التي رأيتها معها في الاستراحة. وعندما اقتربت منا ووقع بصرها على قدم «بتول» صرخت:

- Oh, mon Dieu! Qu ce que pass ?

وأجابتها «بتول».

- Rien.. rien ثم أردفت بالعربية.

إيش فيكي؟ هذا جرح صغير.. وهو اللي أنقذني.

أشارت إليّ وهي تقول كلمتها الأخيرة.

تصافحنا أنا وهـي. عرفتنـي اسـمها قائلـة: اسـمي «أحلام». وبعد حوار قصير قالت «بتول» إنها تشعر بالتعب وإنها تفضل العودة إلى الفندق لتسـتريح. وقبـل أن تـذهب أخبرتني برقم الغرفة التي تقيمان بها وهي تقول:

- ممكن تمر في أي وقت. تعالَ المسا اشرب معانا شاي لو مش عندك ارتباطات.

شكرتها ووعدتها بالمحاولة.

عدت أتابع القراءة في الكتاب فـور انصـرافهما وأنـا مشغول تمامًا ببتول.

[[.. كانت الفتاة مليحة القسمات، جميلـة الوجـه، ذات قوام فتان، فاضطرمت الرغبة في أعماقـه واسـتبدت بـه، فراودها عن نفسها: يا ابنة السحر لقد فتنـت بـك وطغـى الوجد، أفلا تقبلين بي لأودعك حبي وشوقي.

هلعت الفتاة إذ وجدت هذا الشيخ المهيب يبرز أمامهـا كأنه ولج إليها من أبواب الغيب ويخاطبهـا بمـا لا تقـوى العذراء على سماعه فقاطعته بصوت متحشرج به أثر مـن الذعر: كيف يكون ذلك أيها الشيخ وما زلت عذراء في طاعة أبي، ولم يمسسني بشر. ولم أعرف المعصية من قبـل؟ رد

الشيخ وكأن كلماتها وقعت على أذن صماء: هيا يـا فتـاة.. فليس في هذا زلل أو معصية معي وأنا الشيخ الزاهد، هيـا يا فتاة فلقاؤنا لقاء الأقدار!

تضرجت وجنتاها بحمرة الخجل، وتابعـت عباراتهـا لا يخفف من وطأة الوجل ما سمعت من ذلـك الشـيخ مـن عبارات بدرت وكأنما قصد بها أن تهـدئ مـن روعهـا.. ويلي.. ويلي. كيف يُخفى الأمر بعد هذا والناس شهود مـن حولنا على هذا الذي تبغي.

فرد الشيخ ذراعيه فثار ضباب عظيم لفهمـا معًـا، وإذ تلاشى عاد كل إلى حاله وكأن أمرًا لم يقع. ولكن ذلـك مـا كان ليخفف من اضطراب الفتاة «ستيافاني». وأخذت الأفكار تتناوبها من كل طرف ولا تدري مـا سـيكون حالهـا بعـد اليوم..]].

ظهرت لي «نورا» من بين السطور بوجههـا الأليـف تبتسم في طفولية. أشعلت سيجارة. وطلبت زجاجة بيرة مـن النادل. نحيت الكتاب جانبًا وأخرجت دفتر مذكراتي ورحـت أقلب فيه قليلاً.

«.. كل الطرق المسدودة بيني وبين نورا قادتني إليهـا في آخر المطاف. ذابت الحدود وانتهى سوء التفاهم واختلاف الرؤى والإحساس المتبادل باختلاف التركيب النفسي. انتهى كل هذا لتحل محله مودة ورقة وبهجـة باللقـاء ومناقشـات اتسمت على جديتها برومانسية مدهشة».

سألت نفسي ألف مرة.. لماذا أحبها؟ ولم أستطع الإجابة على السؤال. قلت ربما لجمالها الآسـر أو لطريقتهـا فـي الحديث ومداعباتها الرقيقة أو لأنها موهوبة ولأنني معجـب بطريقتها في الرسم. وربما لأنني أعجبت بقدميها الجميلتـين الصغيرتين عندما رافقتها في إحدى المرات لشـراء حـذاء جديد وأثارتني أنامل قدميها الرقيقة المطلية بطـلاء أحمـر مبهج.

أحاط بي سؤالي مرة أخرى.. ماذا تريد؟ سـؤال يبـدو بسيطًا غير أن إجابته كانت على العكـس شـديدة التعقيـد. أعرف أنني غير مؤهل لمعايشة حالات الجذب العـاطفي. إذ تتدهور حالتي النفسية ويزداد اضـطرابي لدرجـة تجعلنـي لا أستطيع التواصل مع الآخرين.

استقرت في أعماقي حالة من الخوف الغريزي من فشل التجربة في المستقبل. وخشيت أن أتعلق بها. فليس هناك ضمانات من أي نوع. ألم أشهد بنفسي حالات حب متوهجة تنهار في لحظة وأحيانًا ببساطة شديدة؟!

وامتزجت مخاوفي بهاجس تجربتي مع «هند». ذلك الهاجس الذي يثير بداخلي مشاعر متناقضة تثور معها الأسئلة مرة ومرات. لماذا انتهت هذه العلاقة إلى ما انتهت إليه؟

كيف واتتني الجرأة على اتخاذ مثل هذا القرار. إنهاء علاقة تحتوي على كل أسباب النجاح ومحاطة بهذه القدرة المدهشة لتفاهم كائنين طوال أربع سنوات كاملة؟ كيف يمكن توصيل ذلك؟ هل كنت أحبها حقًّا؟ وإذا كان ذلك صحيحًا فلماذا تحول فجأة إلى تلك الرغبة في عدم الارتباط بها، أين يكمن الخطأ؟ في العلاقة ذاتها وطبيعتها. أم في تراكم الاختلافات المستمر، اختلاف الرؤى. إصرارها أن كل مشاكلها ستحل بالزواج وأن كل احتياجاتها الخاصة ومشروعاتها مؤجلة إلى ما بعد الزواج:

لا أعرف. ربما يكمن الخطأ فيّ أنا النازع إلى المثالية المستحيلة والكمال المطلق أزمتي الأبدية وحلمي المستحيل.

عندما أحضر النادل البيرة شكرته قبل أن أسأله عن اسمه، فاتسعت ابتسامته كثيرًا وهو يقول: سعيد.

- اسم على مسمى فعلاً.

ابتسم ولم يعلق.

ارتشفت رشفة من البيرة قبل أن أعاود القراءة: «..وهل يحتاج هذا الإطار إلى مواصفات خاصة. وهل هناك أساسًا مواصفات خاصة مسبقة أم أنها محض اختلاق لأوهام غير موجودة؟

ولكنني في النهاية لم أجب على السؤال. خشيت أن تفقد العلاقة بريقها وتلقائيتها باختلاف مبررات قد تكون كلها وهمية وهكذا أضفت إلى المبررات عادتها الجديدة إدخال يدها في جيب البنطلون لتقرصني في ملتقى الحوض بأعلى الفخذ ونحن نسير في الشارع. ورحت أردد بعدها أحبها لأنها موجودة نعم أحبها لوجودها هذا الذي يبهجني تمامًا دون غيرها.

أما هي فقد بدأت في ارتداء الأقنعة ربما لتختبر قدرتي على اكتشاف خباياها أو لتخفي الفراغ الذي تهيم روحها فيه، كانت دائمًا تحاول الحفاظ على إحاطة نفسـها بهالـة مـن الغموض..».

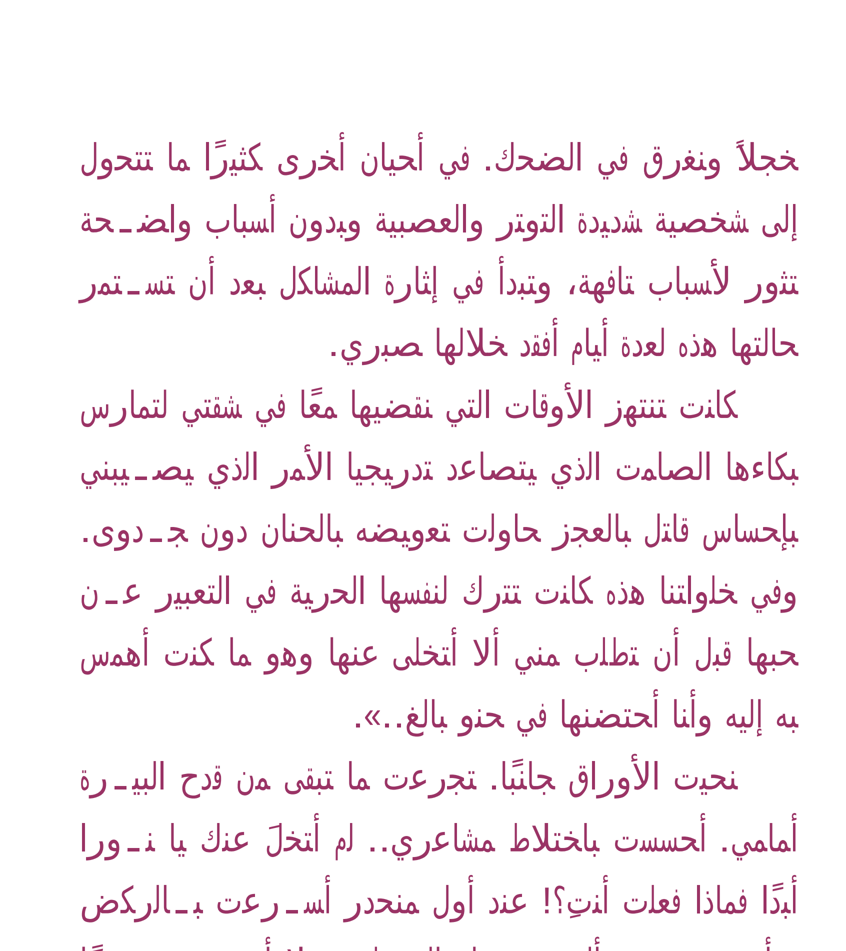
قلبت الأوراق قليلاً.. قبل أن أتابع القراءة:

«..أسرتني نورا بحبها. بلفتاتها الرقيقـة ورومانسـيتها الشديدة.. بعد خروجنا من السينما أشارت إلى الخلـف فـي محاولة منها للفت نظري. عندما التفت إلى حيـث أشـارت وقعت عيناي على مشهد رائع للغروب يرتسم فـي خلفيـة كوبري الدقي في الأفق البعيد.

وفي المطعم الذي اعتدنا الجلوس فيـه بشـارع هـدى شعراوي همست لي عاوزه أبوسك.

قلت لها مبتسمًا: أنتِ حرة.

امتزج بريق الحب بالخجـل والجنـون فـي العينـين السوداوين الآسرتين وهي تتطلع حولها قبل أن تطبع علـى وجنتي قبلة خافتة، فتشتعل كل الألحان الطفولية القابعة فـي أعماقي وأحتضنها بعيني وأنا أومئ لهـا باتجـاه الكـاميرا المعلقة في الزاوية المواجهة لنا، فتضع كلتا يديها على رأسها



خجلاً ونغرق في الضحك. في أحيان أخرى كثيرًا ما تتحول إلى شخصية شديدة التوتر والعصبية وبدون أسباب واضحة تثور لأسباب تافهة، وتبدأ في إثارة المشاكل بعد أن تستمر حالتها هذه لعدة أيام أفقد خلالها صبري.

كانت تنتهز الأوقات التي نقضيها معًا في شقتي لتمارس بكاءها الصامت الذي يتصاعد تدريجيا الأمر الذي يصيبني بإحساس قاتل بالعجز حاولت تعويضه بالحنان دون جدوى. وفي خلواتنا هذه كانت تترك لنفسها الحرية في التعبير عن حبها قبل أن تطلب مني ألا أتخلى عنها وهو ما كنت أهمس به إليه وأنا أحتضنها في حنو بالغ..».

نحيت الأوراق جانبًا. تجرعت ما تبقى من قدح البيرة أمامي. أحسست باختلاط مشاعري.. لم أتخلَ عنك يا نورا أبدًا فماذا فعلت أنتِ؟! عند أول منحدر أسرعت بالركض وبأقصى سرعة ألقيت بنفسك إلى طريق لا أعرف عنه شيئًا بينما أقف وحدي في الطريق.. بلا قدرة على إدراك هذا العبث. تتدمر روحي تدريجيا بينما أعجز عن إصلاح ما يتمزق ويهترئ يومًا بعد يوم.

ألن تنتهي هذه الرغبة المدمرة في تعذيب النفس أبـدًا.

إلى متى سأظل أعايش هذه الأوهام والهواجس.. إلى متى؟!

لملمت أشيائي. لوحت لسعيد مودعًا وأنا في طريقي إلى بيت الشباب.

- ٧ -

وكما جاء «الصلات» فجأة رحل فجأة تاركًا إياي لوحدتي، وذهولي مما حكاه، ومما رأيته بعيني، وخرجت لا ألوي على شيء. لا أعرف أين تقودني خطاي؟!.

وبدا الطريق طويلاً.. ممتدًا أحيانًا وملتويًا في أحيان أخرى.

تناهت إلى سمعي أصوات آهات وأنات اكتشفت لاحقًا أنها تخص أشخاصًا افترشوا الأرض بينما تنضح ملامح وجوههم بالألم أو الإرهاق والتعب. حاولت أن أسأل أيا منهم عن أسباب وجوده في هذه المتاهة أو على الأقل أن يدلني على نهاية الطريق. غير أنهم كانوا يلتفتون إليّ في ذعر يحملقون في وجهي شاردين ثم يعودون إلى ما هم فيه.

في منتصف الطريق تعثرت إثر ارتطام قدمي بما بدا كأنه جسد آدمي تكوم بجوار الجدار الذي أسير بمحاذاته.

سمعت اسمي فأجفلت وكان الصوت الواهن يشتد قليلاً. رأيت الجسد مسربلاً بالأسود ملقى على الأرض بلا حركة.

عندما اقتربت تبينت من الصوت الذي صارت نبراته أكثـر وضوحًا أنه يخص أنثى سألتني بوهن:

- أخيرًا حضرت؟!

أخرجت من حلقي همهمات غامضة إذ إنني لم أكن أفهم شيئًا.

تأوهت بشدة فيما كنت أحاول مساعدتها على النهـوض وهي تضغط بأسنانها العلوية على شـفتها السـفلى. تأملـت عينيها فراعني جمالهما. لم تكن عيناها السوداوان واسـعتين غير أنهما كانتا تلتمعان ببريق أخاذ، ويزداد التماعهما كلمـا حدّقت فيهما وارتجفت. عاودني هذياني. كأنني آلفها وأعرفها منذ عمر طويل يمتد بطول حياتي. عادوني هذياني.

حدقت بعيني قبل أن تهمس لي برقة شديدة.. اتبعنـي. وسرت خلفها مخدرًا، وانتشيت؛ إذ تهيأ لي أنني نجحت فـي اختراق المتاهة. وها هي رؤياي قد تحققـت أخيـرًا. نفـس الجسد ونفس رنين الخلخال وأحسست بروحي تصفو وتتخفف مما أثقلها طويلاً.

قبل أن ينتهي الدرب بممر بدا أنه ينحرف إلى اليسـار خففت من سرعة خطواتها قليلاً قبل أن تتوقف وتشير إلـيّ بإحدى يديها أن أقترب وتعاود الهمس بذات الرقة.. اتبعني.

على الجدار المجاور لمدخل الممر لمحت نقشًا دقّقت فيه النظر، بسبب خفوت الإضاءة، حتى استطعت أن أتبـين مـا كان مكتوبًا: «سيدة الجبل». وعندما دلفت إلى الداخل انسابت ترنيمات خافتة تصاعدت تدريجيا، ولكنها كانت مختلفة قليلاً عما سمعته من قبل إذ اختلطت أصوات نسائية رقيقة أقرب ما تكون إلى تنهدات مشوبة بالشبق أثارتني قليلاً.

كان المدخل يؤدي إلى ممر ضيق كأنه مضاء بإضـاءة طبيعية تأتيه من نافذة علوية لم أستطع تحديد مكانها، وينتهي بمدخل آخر شبه دائري يتسع ليفضي إلى قاعة كبيرة مـا إن دخلتها حتى لفحتني نسمات هواء باردة مسّت وجهـي مسـا لطيفًا.

كانت القاعة مقسمة إلى أربع غرف ضيقة بلا أبـواب وإنما مغطاة بستائر بيضاء شفافة. اثنتان على كـل جانـب. وفي المواجهة كانت هناك غرفة أكثر اتساعًا مـن الأخـرى وتعلوها قليلاً ببضع درجات. تنسدل على واجهتهـا سـتائر

فخملية شفافة، تشع من خلفها إضاءة متوسطة القوة، كشـفت عن أريكة تمددت فوقها سيدة اتكأت على إحـدى ذراعيهـا لترتفع بجذعها قليلاً، وكانت وضعية رأسها تشير إلى أنهـا تنظر باتجاهي.

بعد لحظات أتاني صوتها بذات الرقة وإن كان مشـوبًا بغنج واضح: تعالَ الآن.. هيت لك يا حبيبي.

اقتربت منها حتى وصلت إلى الستارة وما إن نحيتهـا قليلاً حتى هتف يا ربي!

كانت السيدة أمامي جميلة جمالاً صارخًا فيما انسـدلت على جسدها غلالة بيضاء شفافة لم تستطع إخفاء شيئًا مـن تفاصيل الجسد الرشيق الفارع الممدد أمامي.

مدت لي يديها بعد أن عدلت من جلستها قلـيلاً وهـي تقول بدلال: تعالَ يا حبيبي. لا شك أنك متعب تمامًـا مـن طول رحلتك. ولكن لا بأس. ستنسى الآن كل آلامك عنـدما تنام في حضني. وعندما ألقمك ثدياي ستتذوق معنى اللـذة. وعلى فخذاي ستعرف كيف تكون الراحة. وتحـت سـرتي ستتجدد لذتك إلى الأبد. تعالَ..

أثارتني كلماتها ونبرات صوتها وأنا أتأمـل صـورتها مذهولاً: عينيها الواسعتين المدهشتين بلونهما الذي يختلط فيه العسلي بالأخضر الفاتح تحت حاجبيها الغزيـرين المشـذبين بعناية. وجهها البيضاوي النحيل يحيط بأنف صغير مـدبب يرتفع فوق شفتين دقيقتين تبرز العليا قيلاً ثم تنسحب برقـة على الجانبين حتى تكاد تتلاشى. أما شعرها فطويل ناعم لـه لون كستنائي فاتح ينسدل على ظهرها. وبدا لون بشرتها كأنه خليط من القهوة باللبن ولون النحاس لا تستطيع الغلالة التي ترتديها إخفاء التماعه بطول الجسد الفارع النحيل الذي يمتلئ قليلاً بعد الخصر كاشفًا عن ردفين كبيرين وإن في تناسق مع الجسد المعجز.

- تعالَ الآن.. اجلس هنا بجواري. اخلـع ثيابـك أولاً. واجعلني ألتحف بجسدك الذي انتظرته طويلاً. فلأجلك اغتسلت في بركة القمر ليلاً، ودلكت جسدي بالدهون. زينت بالكحل عيني وبالشراشـف الذهبيـة ردفـاي وجمّلت جدائلي. ودهنت شـفتي بـالمرهم العنبـري. أحرقت البخور المعبق بالعود حتـى تشـربته مسـام جسدي. اترك الحرية ليديك لتكتشف ذلـك كلـه الآن.

دعهما تعرفان كم هو منتفخ صدري من فرط ولعـي بمجيئك. كنت أعرف أنك ستأتي وأنك ستضـع يـدك اليمنى على فرجي، وباليسرى تداعب شعري وأنـت تضغط شفتي بشفتيك. خذني الآن يا حبيبي. عـانقني وشدني إلى صدرك. تلمس فخـذي وربـت عليهمـا. قبلهما واضغط عليهما بجسدك.

كان صوتها يتسلل إلى أعصـابي ويدغـدغ حواسـي. ويتسلل العبق الذي يفوح به جسدها فيختلط بالمشهد السحري أمامي ويوقعني أسيرًا لرغبتي فيها.

عندما اقتربت منها تأوهت وهو تتأود بينمـا يخـرج صوتها شبقًا وناعمًا ومغلفًا بشهوة عارمة أشـعلت رغبتـي للدرجة التي جعلتني أشعر بأنني غير قادر علـى السـيطرة على نفسي.

- أنفاسك تلهبني. هيا.. انزع هذه الغلالة عني.

ثم إنها وقفت أمامي فجأة. لم تكن ترتدي سوى مئـزرًا طويلاً أسدلته على جسدها، فلمّا نضوته عنها تفجـر مشـهد جسدها كله أمام عيني مبهرًا. الكتفان المرمريتان. والثـديان الكاعبان في غير ترهل بحلمتيهما الصغيرتين الداكنتين قليلاً.

والبطن الهضيم المتماسك والذي التفت حوله سلسـلة ذهبيـة رقيقة تتدلى منها قلادة ذهبية تغطي ملتقى الفخذين. عنـدما وضعت يدي حول خصرها شـعرت بـأنني أوشـك علـى الاحتراق من شدة حرارة جسدها المتوهج بالشهوة وبتـأجج رغبتي. ضممتها إلى صدري فاكتشفت أن جسدي مسـربلاً بالعرق وتشممت عبقها وأنا أضع رأسي في المنطقـة بـين العنق والكتف وشعرت بما يشبه الدوار. عندما لمست شفتاي رقبتها تبللتا بما انساب عليها من قطرات العرق فيما فاجأتني هي بصراخها: خذني بين ذراعيك.. أنفاسك تقتلني. ضـمني إليك بقوة. اطرحني أرضًا وادفق عليّ ماء قلبك.

من خلف الستار سمعت أصوات أنثوية أقرب ما تكـون إلى أنات شبقة صعدت من طقوس اللذة التي فوجئت بنفسـي غارقًا فيها بما يزيد من قدرتي على الاحتمال. سمعت أيضًـا صوتًا ذكرتني نبراته بالرجل الفراشة ولكني لم أتبـين منـه شيئًا.

ألقت بنفسها فوق الأريكة ثم جـذبتني إليهـا وفاجـأني ملمس جسدها تحت جسدي فرحت أضمها بقـوة. غيـر أن صوت الرجل الفراشة ارتفع للدرجة التي جعلتني أتيقظ قليلاً

من نشوتي رغم فرط بهجتي بعري هـذه المـرأة السـاحرة تحتي. أضحت السمع لاحظت أنهـا بـدأت ترفـع صـوت صراخها الشبق فأطبقت بشفتي على شفتيها بقوة كأنني أحاول تقبيلها.. وجاءني الصوت شديد الوضوح هذه المرة.

« أصغ إليّ فإني محادثك في مجاهدة النفس. واعلـم أنه على الإنسان أن ينهض بعمله خالصا من الإثرة بريئًـا من الأمل بجزاء أو خوف من عقاب فينال عندئذٍ السـعادة الأبدية. اعلم أن الملذات وما يعرضه الهوى منبع لـلآلام، وأن اللذة والشهوة هما من العوارض التي ما إن تحل حتى تتبدد. وإنك لن تجد فيهـا الفـرح الأبـدي. إن الشـهوات والملذات ظواهر عارضة لأنها تخضع لنفس القانون: البداية والنهاية.. الولادة والموت..».

انتفضت من فوقها وأنا ألهث. وجاءني صـوتها رقيقًـا ومبحوحًا ومحملاً بالشبق:

- أرجوك.. لا تتركني.. فقد أشعلت جسدي بالرغبة فلا تتركني حتى تطفئ ما أشعلته.. أرجوك..

ابتلعت ريقي عدة مرات حتـى اسـتطعت أن أخـرج صوتي متحشرجًا:

- أرجوك أنت.. أنا استجبت لك لأنني ظننت أنك فتـاة عمري التي كنت أبحث عنها.

- وما الذي حدث؟ ألم ترى بعينيك ما رأيته في رؤيـاك قبل الدخول إلى هنا؟ أرجوك دعك من هذا اللعـب.. وتعال.

نظرت إليها. ولعنت الرجل الفراشة. لماذا لـم ينتظـر قليلاً قبل أن يعطيني إشارته اللعينة؟ حدقت بعينيها للحظـات وعندما لمحت الشبق الذي اختلط فيهما بالرجاء قـررت أن أضرب عرض الحائط بالرجل الفراشة وبكل شـيء لألقـي بنفسي عليها وليكن ما يكون.

غير أنه أدرك ما يجول بخاطري فيما يبدو فبدأ يرفـع صوته مرة أخرى:

«إن الشهوات والملذات ظواهر عارضة لأنها تخضـع لنفس القانون: البداية والنهاية. الولادة والموت..».

وأدركت أنها إشارة وتغلب علـيّ خـوفي. فالمتاهـة لا قرار لها. وبرغم اليقين الذي لازمني عند دخولي الكهـف بأنني أدخل بمنطق المغامر والمقامر. لكني كنت على قناعة تامة بوجود من أبحث عنها. التقطت ثيابي من أرض الغرفة

وأسرعت خارجًا. أسرعت خلفي وتابعت توسلها ورجاءها ببقائي. لكني تسلحت بيقيني مرة أخرى فقاومت كل ما حاولته معي من إغراءات. ولما لمست إصراري على رفضي انخرطت في البكاء وانسالت كلماتها من خلال بكائها تؤكد على محبتها لي وتحرقها لمضاجعتي. تقنعت بقناع من الحزم وحافظت جاهدًا على ملامح وجهي لإخفاء أي شبهة تأثر رغم تحرقي لملاطفتها ومداعبتها وضمها إلى صدري. في اللحظة التالية بدأت تختفي اختفاءات لحظية لتتخذ بعد ظهورها أشكالاً أخرى.. هي أشكال النساء اللواتي عشقتهن وتركت كل منهن على روحي بصمتها الخالدة. «هند» بنظرات عينيها المفجعة تشكوني للسماء و«نورا» بجنونها وجمالها الخالد وبكائها الأبدي الصامت. و«هدى» التي ارتبطت عندي بالخطيئة والعجز الجنسي، ثم «بتول» التي كنت أشعر بمرور الأيام أن روحها تحلّق حولي دائمًا رغم سفرها البعيد.

أدركت أن كل هذا لا يتجاوز حد التحايل. وأن ما تفعله هذه السيدة الفاتنة لا يمكنه أن يخرج عن حدود طقوس اللذة التي تخضع لقانون الشهوة.. تبدأ وتنتهي ولكنها لا تمتلك

عناصر الاستمرارية والخلود التي تبقى سـرا مـن أسـرار الحب الحقيقي الذي أبحث عنه بكل ما تمتلكه روحي من قوة في دهاليز هذا الكهف ومتاهاته. ويبدو أنها أدركت ذلـك إذ إنها تنهدت بيأس ثم ابتسمت وهي تقول:

هل تعرف أنك أحد القلائل الذين مروا بغرفتي دون أن يقعوا أسرى عشقي متوهمين أنني التي جاءوا للبحث عنهـا. هل شاهدت هؤلاء الرجال الذين يمتلئ بهم الممـر خـارج غرفتي؟ كلهم عشاقي؛ أقبلوا عليّ ممتلئين بحيويتهم وطاقاتهم وشبابهم، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام جسدي الذي كان يجدد لذتهم. ولم أكن أترك أيا منهم إلا خائر القوى.. خاويـة روحه من أي قدرة على عشق أحد بعدي. لكـن أحـدًا لـن ينالني مرة أخرى، وسيظل يحلم بي طيلة حياته. أمـا أنـت وأمثالك فسوف تفوتكم معرفة لذة وصالي إلى الأبد. ولكـن من يدري فلعلك تدرك من تقامر على وجوده يومًا فتعوضك عن ذلك. ولكن ما يدهشني أن هؤلاء الـذين يقـوون علـى الصمود أمام سـحري وأنـت مـنهم هـم بالتحديـد مـن يستهووونني.. ربما.. لا أعرف. وعلـى كـل حـال فـإنني

سأخبرك عن قصتي.. ولكنها قصة طويلة.. فهل ترغب في سماعها؟

هتف لها برقة: أرجوك.

أخذت تحدق بالسقف لوهلة وكأنها تسـتجمع أفكارهـا. وتأملتها للحظات لكني حولت بصري بعيدًا خوفًا من وقوعي تحت تأثير جمالها.

«كنت وأنا بعد فتاة صغيرة أسكن في مدينة غير بعيـدة عن هنا. «مدينة النخيل». ولعل اسمها يوضح أنهـا كانـت ممتلئة بأشجار النخيل وتجري خلالها قنوات الميـاه طـولاً وعرضًا. ولكنها أيضًا مدينة ساحلية. وهنـاك فـي أقصـى أطرافها المواجه لمياه البحر! استقرت ميناء البواخر الكبيرة والتي كان يعج رصيفها بالحركة والحياة، وبالبضائع من كل صنف ولون؛ التوابل والعطور والأقمشة والخمور التي كنت أحب رائحتها وهي تعبق فـي المكـان مختلطـة بالتوابـل والعطور؛ حيث يتم إنزالها إلى الميناء تمهيدًا لنقلها إلى قصر الأمير، والذي أطلق عليه البعض اسم السيد ذي النظر البراق أو الرجل الجبل، عبر القناة الأميرية التي تمتد بطول الميناء وتخترق الجبل حتى تنحرف أخيرًا عبر الشـلالات باتجـاه

القصر. كنت أحب هذه القناة أكثر من باقي الينابيع المنتشرة في المدينة؛ لقربها من القصر والبحر، ولأنها تمتلئ وتجري من الشلالات القريبة التي تسوقها السيول المنجرفة من فوق الجبال.

كانت متعتي الكبرى في التنـزه علـى امتـداد القنـاة الأميرية حتى يحين الغروب فأسرع إلى أوسع نقاطها التـي تقع تحت الشلالات مكونة بحيرة كبيرة، وهناك أخلع ثيـابي وألقي بنفسي فيها للاستحمام والسباحة.

عندما كبرت قليلاً وبرز نهداي قالت لـي أمـي أنـت ودعت طفولتك.. وقد نضـجت الفاكهـة. إيـاك والبحيـرة الأميرية. ولكني لم ألقِ بالاً ما قالته أمي.. إلا أنها اكتشـفت عودتي ذات مساء وشعري ما زال مبللاً بماء البحيرة فثارت وصاحت باكية: ألم أحذرك من الذهاب إلى هناك؟ أنتِ لست صغيرة الآن. إذا وقعت عليك عينا السيد ذي النظر البـراق ماذا ستفعلين؟ سوف يسلط نظـره عليـك.. سـوف يلجـك ويجامعك. فاحذري.

فكرت فيما قالته أمي وأنا أتخيل السيد ذا النظر البراق، وكنت قد رأيته من قبل وبدا لي لطيفًا، وقلـت لنفسـي إنـه

لطيف وأنا لا أخشاه. فضربت عرض الحائط بما قالته أمي. عند القناة الأميرية كنت أتنزه كل يوم، وفي البحيرة الأميرية تحت الشلالات أسبح بلا مَلل. وذات يوم وبينما كنت أسـبح تحت الشلالات أحسست بأنني مراقبـة، ولكنـي تجاهلـت إحساسي دون شعور بالوجل. عندما خرجت مـن البحيـرة عارية، وقبل أن أجفف جسدي، فوجئت به نفسه. السـيد ذي النظر البراق يقف أمامي ويسدد نظره إليّ مبتسمًا. أخفيـت نهدي بيدي. وظل يتأملني قليلاً ثم قال:

- أريد أن أضاجعك.

بهتتني المفاجأة. ولم أعرف بم أجيبه. لكنني استجمعت قواي وقلت له:

- لا يزال مهبلي ضيقًا ولا أستطيع توسيعه.

واستمر هو في تسديد نظره إلـي حازمًـا وإن ظـل محافظًا على ابتسامته. فزاد ارتباكي وقلت له:

- شفراي صغيران جدا. لـن أسـتطيع المجامعـة. إن عرفت ذلك أمي تعاقبني. إن عرف ذلك أبي يقتلنـي. ورفيقاتي سيسخرن مني.

لم يقل الرجل شيئًا غير أنه انصرف فجأة. وذات يـوم كنت أتنزه بمحاذاة القناة الأميرية فوجئت بخادم الأمير يطلب مني الانتقال إلى القارب لأن السيد يرغـب فـي رؤيتـي. رفضت وبدأت أركض هاربة فقفز من القارب حتى لحق بي، ثم حملني عائدًا غير آبه بصراخي. وضعني بالقارب. ألقاني على بطني ثم قيد ذراعي وساقي، وحاولت التخلص من هذه القيود بكل قوتي ولكن دون جدوى حتى وقعت مغشيا عليّ.

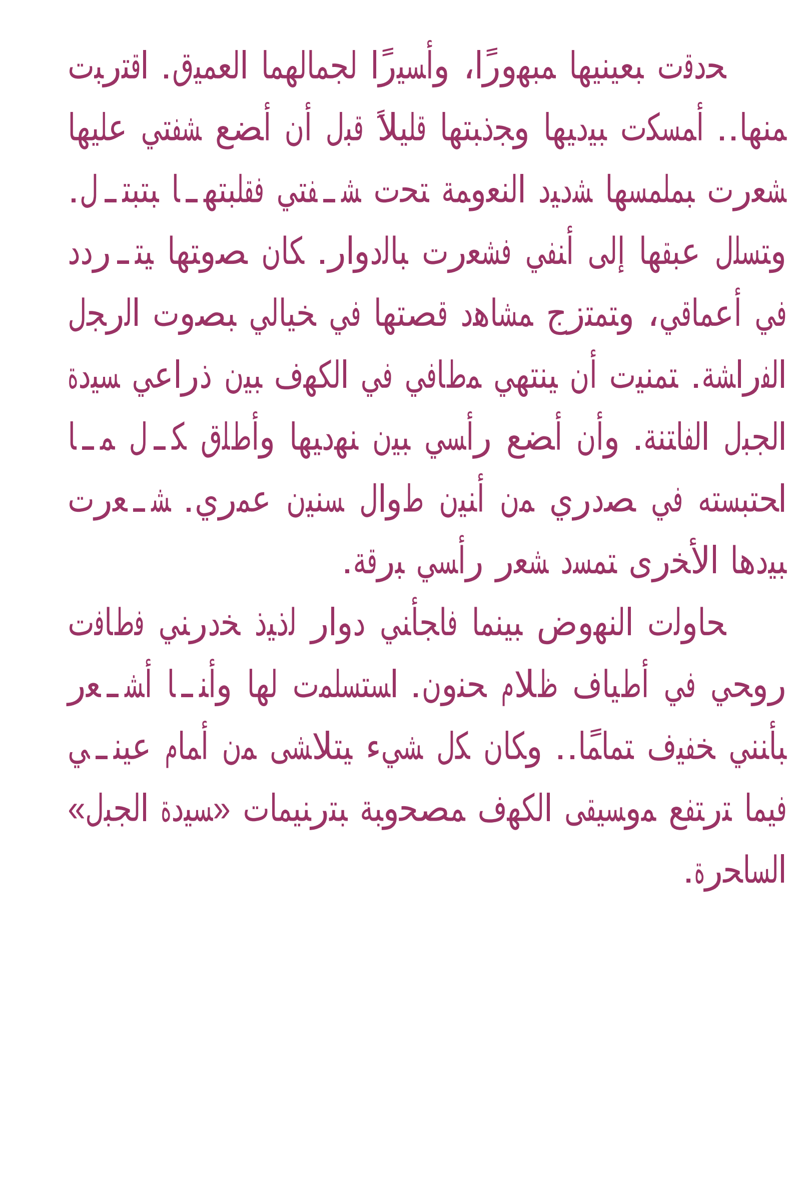
عندما أفقت وجدت نفسي راقدة فـي إحـدى مـزارع القصب؛ عارية تمامًا. تفحصت جسدي. كان هو نفس الجسد غير أنني شعرت بأنه غريب عني. يختلط بروائح غريبـة، وعند فخذي وجدت آثارًا أدركت منها ما حدث. قاومت هلعي وفكرت بسرعة، ولم يكن أمامي إلا قـرارًا واحـدًا اتخذتـه بسرعة.. أن أنتقم لفرجي المهان. قلت لقد نال مني ما أراد.. لا بأس. ولكني سآخذ روحه في المقابل. من سفينته الشامخة التي أهانت فرجي ستخرج روحه.

ذهبت إلى غانية المدينة وطلبت منها أن تستخدم كل ما تعرفه من فنون الزينة لتبرز جمالي بالشكل الذي لا يستطيع معه أعتى الرجال وأقواهم الإفـلات مـن أسـر غـوايتي.

وانطلقت إلى القصر. كنت أخشى أن يتجاهلني أو يرفض لقائي لكن عيناه عندما وقعتا على فاضتا بما جعلني أقول له إنني عرفت ما فعله بي وإنني وقعت أسيرة لعشقه وهواه. وبدأت في إغوائه. ولكنه لم يكن في حاجة إلى غواية. انقض علي بشهوته الوحشية. لعبت معه لعبة الإناث المعروفة بالتدلل والتمنع، ومع تزايد رغبته تركت له جسدي يعبث به كيف يشاء. وجعلته يقضي مني وطره مرة ومرات. وكلما أحسست باكتفائه كلما اشتدت رغبتي في الثأر لفرجي المهان، أشعلت رغبته بكل الطرق حتى خارت قواه. واستمر الأمر على نفس الحال لعدة أيام للدرجة التي لم تعد للأعشاب والمقويات والوصفات الخاصة القدرة على أن تعيد له حيويته. كنت أعرف أنني أقترب كل يوم من تحقيق هدفي. وبعدما كانت الفترات التي يحتاجها للراحة بعد انقضاء لذته قصيرة، بدأت تطول تدريجيا حتى وصلت إلى حد عدم قدرته النهوض من فوقي. وعندها أبدأ لعبتي في إثارة كبريائه وأنا أهمس إليه متسائلة في خبث. كيف ينهار السيد ذو النظر البراق بين فخذي امرأة؟ كانت كلماتي تؤجج إحساسه برجولته، غير أن حقويه لم يعد بإمكانهما أن

يساعداه بشيء، وانتهى الأمر بأن سفينته الشامخة التي أهان بها فرجي لم تعد تملك شيئًا من ماء الحياة... ولم يكن هناك إلا الدم.

وفي اليوم الذي مات فيه أطلق عليّ أهل المدينـة اسـم «سيدة الجبل». ومع ذلك استمر إحساسي بالمهانة ولم يشفِ هذا غليلي، قلت إن موت هؤلاء الذين يقتحمون أجساد النساء والفتيات كل يوم دون أدنى رغبة منهن أو إرادة، وقررت أن أنتقم لكل الفتيات اللاتي تعرضن لإهانة فـروجهن. تعرفـت إلى ساحرات المدينة ليخبرنني عن أسماء الرجال. وانتقمـت للفتيات جميعًا خاصة أنهن كـن يحضـرن إلـي لإخبـاري بالوقائع التي يتعرضن لها فيما ينظرن إليّ بإجلال وانبهـار، فلم يكن على علم بتفاصيل ما أفعله، ومـع ذلـك راودنـي الشعور بأن فرجي أصبح مقدسًا رغم أنني لم أستعمله إلا في ممارسة الانتقام. أما هنا فأنا أقوم بدوري لإيماني بهذا الكهف «..كهف العشاق» حيث أقوم باصطياد من يقع أسـير للـذة الجسد دون الروح لإدراكي أنه لا يستحق المعرفة. فاذهـب إلى طريقك.



حدقت بعينيها مبهورًا، وأسيرًا لجمالهما العميق. اقتربت منها.. أمسكت بيديها وجذبتها قليلاً قبل أن أضع شفتي عليها شعرت بملمسها شديد النعومة تحت شـفتي فقلبتهـا بتبتـل. وتسلل عبقها إلى أنفي فشعرت بالدوار. كان صوتها يتـردد في أعماقي، وتمتزج مشاهد قصتها في خيالي بصوت الرجل الفراشة. تمنيت أن ينتهي مطافي في الكهف بين ذراعي سيدة الجبل الفاتنة. وأن أضع رأسي بين نهديها وأطلق كـل مـا احتبسته في صدري من أنين طوال سنين عمري. شـعرت بيدها الأخرى تمسد شعر رأسي برقة.

حاولت النهوض بينما فاجأني دوار لذيذ خدرني فطافت روحي في أطياف ظلام حنون. استسلمت لها وأنـا أشـعر بأنني خفيف تمامًا.. وكان كل شيء يتلاشى من أمام عينـي فيما ترتفع موسيقى الكهف مصحوبة بترنيمات «سيدة الجبل» الساحرة.

- ٨ -

لوحت لمحمد مودعًا وأنا أحمل حقيبتي على كتفي مغادرًا بيت الشباب الذي لا يتاح المبيت له أكثر من ثلاث ليالٍ. توجهت إلى خالد في الفندق. أخبرني موظف الاستقبال عند وصولي بأنه قد ترك لي رسالة أخبرني فيها بأنه اضطر للسفر إلى الغردقة لمدة أسبوع، وأنه قد ترك لي مفتاح غرفته للبقاء فيها حتى عودته أشار موظف الاستقبال إلى أحد العاملين وهو يقول لي إنه سيرافقني إلى الغرفة.

كانت الغرفة صغيرة بها حمّام على اليمين. في المواجهة أخفت الستائر البيضاء النافذة المؤدية إلى شرفة تطل على البحر، وأمامها سريران يتوسطان الغرفة ويواجهها جهاز تليفزيون صغير. وإلى يساري كان هناك دولاب ملابس صغير وثلاجة. كان خالد قد ترك جيتارًا أسبانيا خشبيا تقليديا له لون بني فاتح على فراشه، وانتشرت مجموعة من أشرطة الكاسيت حول جهاز كاسيت صغير موضوع على الكوميدينو المجاور للفراش. فتحت الدولاب

فوجدته مكدسًا – كعادته قبل الزواج وكما ملأ غرفتـه أيـام الجامعة – بصور مختلفة لنساء عاريـات وصـورة كبيـرة لرغدة تتوسطهم جميعًا علقها على الباب الداخلي للدولاب.

أخرجت ملابسي من الحقيبة ورتبتهـا بأحـد رفـوف الدولاب. عندما انتهيت نظرت إلى الساعة فوجدتها تشـير إلى الثانية عشرة. ذهبت إلى الفندق الذي تقيم به بتول فلـم أجد أحدًا في غرفتها. خرجت مرة أخرى إلى الشاطئ الـذي ضج قليلاً بالحركة. مجموعة من الشباب تـركض باتجـاه البحر وأخرى تلعب الكرة عنـد الشـاطئ، بينمـا تمـددت مجموعة كبيرة من السائحين على امتداد الشاطئ شبه عراة.

اتجهت إلى الكافيتريا التي التقيت فيهـا بـ ـ «بتـول» أمس. عندما اقتربت شاهدت فتـاتين ترتـدي كـل منهمـا «شورت» و«تي شيرت» تبينت بعد لحظـة أنهمـا بتـول وأحلام. لوحت لهما فأشارت بتول باتجاهي وهـي تخاطـب أحلام. اقتربت منهما وأنا أحييهما:

- صباح الخير.

فردتا على التحية.

قلت لبتول:

- رحت لك الفندق فقالوا لي إنك خرجت.
- أيوه رحنا هنا (أشارت إلى الوحدة الطبيـة القريبـة) عشان أغيّر على الجرح.
- وإيه الأخبار؟
- لا تمام – الحمد – إمبارح كنت تعبانة شوية.. بس النهاردة كويس.
- جميل.. ورايحين فين؟
- إحنا كنا راجعين الفندق.. وأنتَ؟
- أنا لسه واصل حالاً... تحبوا تشربوا شاي معايا؟
قالت «أحلام»:
- لا.. لا.. أنا ما أقدر.. أنا ما نمت مـن أمـس. لازم أروح الفندق.
ثم نظرت إلى بتول قائلة: جلسي أنتِ إذا تريدي.. هـو يوصلك؟
نقلت «بتول» نظرها بيننا فقلت:
- طبعًا.. طبعًا أوصلك ما فيش مشكلة.. إذا حبيتي.
قالت «بتول»:
- أنا عاوزه أقعد معاك. لكن يعني ما أحب أتعبك.

- لا.. لا.. ما فيش تعب ولا حاجة.

- خلاص.. Ok. انزين أحلام باجلس أنا شوية.

فلوحت لنا أحلام مودعة:

- انزين.. ياللا.. مع السلامة.

أمسكت بإحدى ذراعي وهي تتكئ بخفة على ساقها المجروحة باتجاه الطاولة التي جلسنا إليها بالأمس. عندما شاهدنا سعيد لوح إلينا من بعيد. سألت بتول إذا ما أرادت أن تشرب قهوة فأومأت بالإيجاب، فأشرت له بكفي موسعًا بين الإبهام والسبابة. سألني وهو يحرك شفتيه دون أن يصدر صوتًا:

شاي؟ فأشرت بيدي نافيًا فأعاد حركة شفتيه.. قهوة؟!

فهززت رأسي مؤيدًا.

عندما جلسنا سألتها.

- صاحبتك ما بتحبش المصريين؟

- أحلام؟ لا.. أبدًا. بالعكس.. دي حتى اجتماعية جدا.

بس هي فعلاً تعبانة. وما نامت من أمس.

- وأنتِ؟

- أنا كنت تعبانة جدا ونمت بدري.

- انتو لوحدكو هنا؟
- أيوه.. إحنا هانطلع من هنا على إيطاليا وحنقابل هناك ناس أصحابنا ونروح معاهم أسبانيا بالسيارة.
- آه.. هايل.
- صمتنا للحظات عندما ارتفع صوت الكاسيت بأغنيـة «البيتلز» AND I LOVE HER فهتفت:
- يا سلام!
- بتحبها؟
- جدا.
- أنا كمان.
- بس اشمعنى أسبانيا؟
- يعني بلد حلوة.. وما رحنا من قبل.
- ورحت فين طيب؟
- .. أنا رحت سويسرا وإيطاليا. والمجر.
- هايل.
- أصل السفر في أوروبا سهل.. كله بالقطـار.. بـس أحيانًا لما نكون مجموعة كبيرة بنسافر بسيارة.
- طيب، وهنا في مصر.. رحت فين؟

- زي منا قلت لك أنا جلست في القاهرة يومين. عازوه أروح «دهب» و «سـانت كـاترين» ونفسـي أروح «إسكندرية» ضروري وكمان «الأقصر» و«أسوان». مش عارفه هالحق ولا لأ؟

- طيب إيه رأيك نروح «دهب» سوا.. أنا كمان نفسـي أشوفها.

- وا ؟ يا ريت. أنا كنت باقول لأحلام. بس مش عارفة مالها.. قالت لي إنها مالهاش مزاج تتحرك من هنـا. فممكن يعني نروح سوا؟

- طبعًا.. خلاص اتفقنا.

أحضر سعيد القهوة مرحبًا بنا فشكرناه. وقعت عيناهـا على الكتاب ودفتر المذكرات. سألتني:

- إيه ده؟

- ده كتاب المهابهاراتا.

- ده الكتاب المقدس بتاع الهندوس مش كده؟

- أيوه..

- أصل أنا باحب أقرأ في الديانات.

- وا ؟ بالمناسبة أنتِ.. يعني.. ديانتك؟

ضحكت وهي تتساءل مستنكرة:

- إيه ده؟! طبعًا مسلمة.

- يعني أنا فكرت.. عشان مامتك فرنساوية.

- أيوه ماما فعلاً مسيحية لغاية دلوقت. بس أنا مسلمة.

- أنت اتولدت في عمان؟

- لا.. في فرنسا. واتعمـدت التعميـد الأول بـس مـا اتعمدتش الثاني.

- وليكي اسم مسيحي على كده!!

- أيوه.. «أنيت».

- اسم جميل. ده اسم فرنساوي.. مش كده؟

- طبعًا لأن ماما هي اللي اختارته. بس ما حدش بيندهلي بيه أبدًا.

- ولا حتى ماما؟

- ولا ماما.

- بس إنتِ اسمك العربي جميل جدا..

- «ميرسي».

- وكانت دراستك إيه بقى؟

- أنا درست أدب. بابا كان عاوزني أدرس فـي مسـقط بس ماما أصرت إني أروح فرنسا بعد الثانوية العامة. ولما رحت كنت محتارة أدرس أدب ولا سينما لأنـي باحب التمثيل. بس قلت إن دراسة السـينما هتكـون دراسة تقنية أكثر منها دراسة لتاريخ الفـن. ففضـلت الأدب لأني باحب قراءة الأدب والمسرح. ومثلت فـي الجامعة أدوار صغيرة.

- مثلتي؟

- أيوه.. أنا باحب التمثيل جدا. على فكرة مش عارفـة أقولك إزاي (صمتت قليلاً كأنها تستجمع أفكارهـا).. شوف أنا باقول لك.. رغم كل اللي بيقولوه عن التمثيل، ورغم إنه مجال سيئ السمعة نسبيا في العالم العربي.. بس ممتع بشكل غريب.. حاجة كده زي حقنة البنج.

- حقنة بنج؟ هو أنتِ عملت عمليات قبل كده؟

- أيوه.. عملية صغيرة في عيني.

تذكرت العملية الجراحية التي أجريتها والنشـوة التـي أصابتني بعد خروجي من غرفة العمليات.

قلت لها:

- تخيلي إن أنا برضه اكتشفت أهمية التمثيل.
- بتحب تمثل؟
- لا.. يعني فكرت.. لأني كنت قريت إن التمثيل مهـم لأنه بيخلي الواحد يقدر يعبر عن نفسه.. أصـلي أنـا خجول جدا وما باعرفش أعبر نفسي.. ويمكن عشـان كده اتجهت للرسم وحبيته.

مرت أمامنا فتاة نحيلة شقراء ترتـدي مـايوه بيكينـي ساخن لونه أحمر يتأبطها فتى ممشوق القوام له شعر أسـود فاحم، تأملت بطن ركبتها وساقيها الجميلتين وهمـا تلمعـان بفعل تناثر قطرات المياه عليهما.

- أنا كمان خجولة ومنطوية وأنا صغيرة. وكان عنـدي إحساس إني مختلفة عن البنات التانيين. يعني شـكلي وملامحي. بس لما رحت أوروبـا اتعلمـت حاجـات كتير.. الناس هناك مش محتاجة تكذب على بعـض. بيعملوا اللي هما عاوزينه وبدون افتعال وما حدش له دعوه بالتاني والتمثيل كمان فادنى كتير.
- أنا خجول من صغري بس كنت طول الوقت باحاول أتمرد عليه. ما كنتش منطوي أبدًا. فكرت فترة إنـي

أروح لدكتور نفسي بس اكتشفت إني باتغلـب عليـه بالشغل والحب.

- إزاي يعني؟

- يعني لما باعيش حالة حب بابقى مسـتقر نفسـيا. وده بيخليني أشتغل كويس وباكون واثق في نفسي.. لكـن في حالات عدم الاستقرار العاطفي بيحصل لي انهيار نفسي مرعب.

التقطت سيجارة من علبة السجائر ثم قدمت إليها العلبة.

نظرت إليّ بتردد ثم قالت:

- ممكن آخد واحدة؟

- طبعًا. أرجوك.

- أصل فيه ناس مش بيحبوا البنات يشربوا سجاير. انتَ رأيك إيه.. يعني ما تستغربش لما تشوف بنت بتدخن؟

- أنا؟ لا.. طبعًا.. أنا أولاً ما فيش أي حاجة بتدهشـني. وبعدين أنا شخصيا باحب البنت اللي بتدخن، وبعـدين هنا في مصر تدخين البنات بقى عادي.

- أنا أصلاً بادخن لما أكون عصبية. بس عندي فكرة إن الرجل الشرقي سواء في عمان أو غيرها عنده أفكـار

ثابتة و التدخين في بلد زي عمان يخلي البنت كأنها Prostitute.

أشعلت لها السيجارة وأنا أراقبها فنحت وجهها جانبًا ونفخت الدخان بشكل أوحى لي أنها تضايقت من مراقبتي لها.

.. هل ممكن أن يكون حضوري إلى هذا المكان الساحر للقاء هذه الفاتنة مجرد مصادفة؟

كنت في أثناء شرودي أحدق على غير قصد مني في قدميها وقد خلعت «شبشبها» فبانتا أنيقتين، وبضتين وقد طليت أناملها بعناية بلون أحمر فاتح. عندما رفعت رأسي رأيتها تحدق بعيني مندهشة. ولكني بادلتها التحديق كأنما أؤكد لها أنهما جميلتان وأنني كنت شاردًا فنفثت الدخان في وجهي وهي ترسم ابتسامة بها شبهة خبث.

افترش الفتى وفتاته منشفة كبيرة بجوار الشاطئ. استلقت الفتاة على بطنها وقد خلعت القطعة العلوية من المايوه بينما راح الفتى يضع كريمًا سائلاً على ظهرها قبل أن يتحسسه برفق موزعًا الكريم على امتداده.

سألتني:

- مافيش حاجة من الرسم بتاعك معاك؟
- لا..
- طيب.. مش بترسم هنا؟
- وا   لسه ما رسمتش. أول حاجة فكرت أرسمها لغاية دلوقت هو أنتِ.
- أنا؟!
- أيوه.
- وتفتكر إني أستاهل الرسم؟
- بيتهيألي إني طول عمري باحلم أرسم واحـدة شـبهك بالضبط.
- يا سلام؟
- وا   باتكلم بجد. أنا كنت باحلم بواحدة شبهك.
- خلي بالك..الكلام ده خطير.
- خطير إزاي يعني؟
- يعني!
- لا.. لا.. بلاش دماغك تروح لبعيـد.. عمومـًا أنـا هارسمك أكيد.. بس مش دلوقت.

ضحكت الفتاة وهي تدير رأسها باتجاه الفتـى عنـدما وضع يديه على إليتيها. وسرعان ما عاودت الاسترخاء بينما تابع الفتى تحسس فخذيها وساقيها.

ألقت بتول السيجارة بعد أن جذبت منها نفسًـا أخيـرًا وسألتني فيما يختلط صوتها بالدخان الخارج من فمهـا عـن الساعة التي أشارت إلى الواحدة والنصف. فقالت:

طيب.. أنا لازم أروح دلوقت.. إنتَ هاتعمل إيه؟

لازم تروحي دلوقت؟

أيوه.. تعبانة شوية.

أنا هاجي معاكِ أوصلك وبعدين أرجع هنا تاني.. لسـه اليوم طويل.

طيب بس مافيش داعي تتعب نفسك.. يعني تروح كـل ده وترجع تاني.

- لا يا ستي.. تعبك راحة وبعدين «أحلام» مسلماكِ لـي أمانة.

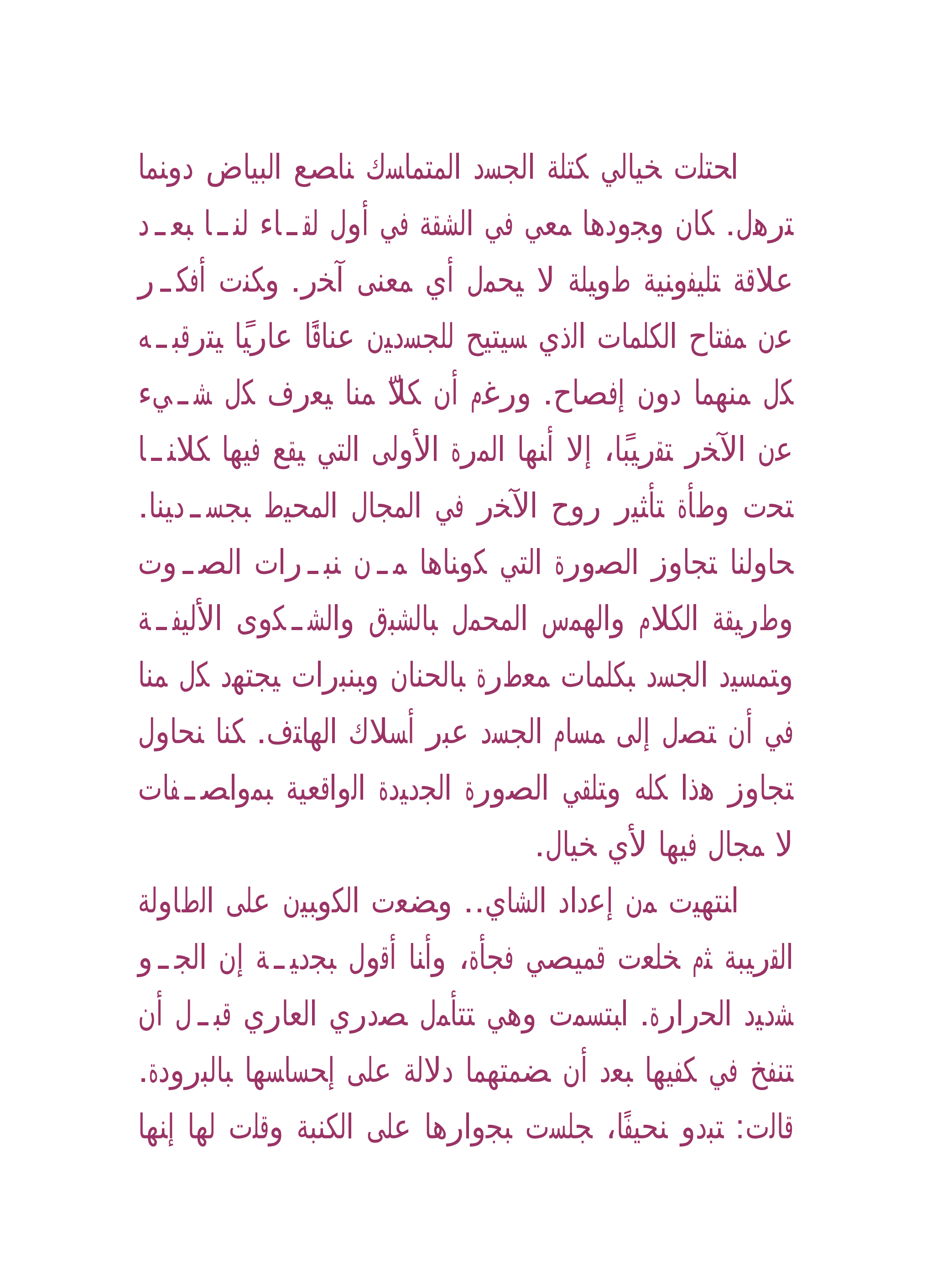
ابتسمت وهي تنهض بتثاقل. وأشرت إلى سعيد بـأنني سأعود بعد قليل فأومأ رأسه ولوح لي.

وكان الفتى قد استرخى بجوار فتاته وقد عرضا ظهريهما لأشعة الشمس التي اشتدت قليلاً.

عدت إلى الكافيتريا. استلقيت مسترخيًا وأمسكت الكتاب معاودًا القراءة **«..وصادف أن كان باند يتجول في الغابات عند سفوح الهيمالايا ووقع يومئذٍ على ظبيين يتزاوجان في خلوة، وتهيأ له أنه وقع فريسة سهلة فباغت الظبي بخمس سهام ماضيات، فخرّ المسكين صريعا وهو يرسل صرخات ألم قوية اهتزت لها الغابة. التفت الظبي الصريع إلى قاتله وحدجه بنظرة طويلة وشرع ينطق بلسان البشر:**

أي ذنب جنيت لتقتلني؟ أي قسوة وأي طبع جاف حملاك على قتلي وأنا لم آتِ ذنبا ها أنت تأتي في لحظة المتعة فتمنعني عنها.. إيه.. إن القساة الأجلاف يغضون الطرف حين يرون الوحوش والبهائم وهي تتزاوج بل إن الأمم المتعادية لا تبادر إلى الحرب قبل أن ترسل إنذارا. ولكنك تجاهلت كل الأعراف حين داهمتني على حين غرة..»..

* * *



احتلت خيالي كتلة الجسد المتماسك ناصع البياض دونما ترهل. كان وجودها معي في الشقة في أول لقـاء لنـا بعـد علاقة تليفونية طويلة لا يحمل أي معنى آخر. وكنت أفكـر عن مفتاح الكلمات الذي سيتيح للجسدين عناقًا عاريًا يترقبـه كل منهما دون إفصاح. ورغم أن كلاًّ منا يعرف كل شـيء عن الآخر تقريبًا، إلا أنها المرة الأولى التي يقع فيها كلانـا تحت وطأة تأثير روح الآخر في المجال المحيط بجسـدينا. حاولنا تجاوز الصورة التي كوناها مـن نبـرات الصـوت وطريقة الكلام والهمس المحمل بالشبق والشـكوى الأليفـة وتمسيد الجسد بكلمات معطرة بالحنان وبنبرات يجتهد كل منا في أن تصل إلى مسام الجسد عبر أسلاك الهاتف. كنا نحاول تجاوز هذا كله وتلقي الصورة الجديدة الواقعية بمواصـفات لا مجال فيها لأي خيال.

انتهيت من إعداد الشاي.. وضعت الكوبين على الطاولة القريبة ثم خلعت قميصي فجأة، وأنا أقول بجديـة إن الجـو شديد الحرارة. ابتسمت وهي تتأمل صدري العاري قبـل أن تنفخ في كفيها بعد أن ضمتهما دلالة على إحساسها بالبرودة. قالت: تبدو نحيفًا، جلست بجوارها على الكنبة وقلت لها إنها

جميلة كما تخيلتها، وقالت إنني أكثر وسامة مما وصفته لها. التقت العيون لوهلة كأنما نعطي فرصة لمراكـز التصـوير بالمخ لتعديل الصورة بما يتلاءم والشكل الجديد.

فاجأتني عندما بدأت في تقبيلها بإغلاق فمها تمامًا، ولم يكن لساني قادرًا على اجتياز أسنانها حتـى اضـطررت أن أنبهها إلى ذلك. كانت تطلق تأوهات مشبوبة بالشبق، وتفـتح عينيها كأنها تعيش في عالم سحري تلجـه للمـرة الأولـى. اكتشفت أنها ليست معتادة على التقبيل رغم زواجها الطويل. وفهمت أن زوجها يدخل إلى مهمته بسرعة ودون مقـدمات. وعندما ذهبنا إلى الفراش أكدت لي مرة أخرى أن خبرتهـا تقتضي الدخول في المهم. وهو ما لم يكن يعنيني كثيرًا. كنت أحتاج إلى المداعبات، أن تضمني إلـى صـدرها بحنـان. حاولت جاهدًا إخفاء الآلام النفسية التي تعتصرني.

لماذا أنام مع امرأة في أول لقاء لنا؟ أعرف أن تـراكم الألم بسبب فقد «نورا» وخيانتها غير المبررة ينقلنـي يومًـا بعد يوم إلى حافة الجنون. واكتشفت أن ما أفعله مـع هـذه السيدة المتزوجة لا يؤدي إلا إلى تفاقم الألم.

وهكذا أوليتها ظهري وكورت نفسـي عاريًـا متأهبًـا للنوم.. يداهمني إحساس موحش بالوحدة. راحت تتصاعد بعد ذلك حتى أفقدتني أية قدرة للتواصل مع الناس.

تسلل صوت منير بأغنية لا أحب أكثر منها.. «النـاس نامت إلاي. الناس نامت إلاك. واقف لك في الشباك.. باستنى اليوم الجاي..».

وداهمني طيف «هند» طافيًـا علـى الألحـان.. كـأن الموسيقى كلها لا تثير إلا الذكريات والحنين لأولئك اللـواتي صرن بعيدات بعد أن أخذت كل منهن جزءًا مـن روحـي وتركنني خاويًا إلا من الألم. هند التي قررت رغـم قـرار الانفصال أن تقضي معي ليلة.. «ليلتنا الأخيـرة» أدرك الآن أنها لم تكن تفعل ذلك لنفسها فقط وإنما، وكما كانت تفعل كل شيء، لأجلي أيضًا، وكأنها تعرف أنني سأعاني بعدها وحشة الوحدة الأزلية، التي لم تستطع إزالتها كل اللـواتي تـدثرت بعريهن لاحقًا. وهكذا ملأت ليلتنا بالرقص الوديع. بحنانهـا الدافق وبدفء جسدها الخمري الأليف..، وبتوسدي وجههـا المشمشي الذي يعبق برائحة حميمة كتلك التي تفـوح مـن الأطفال، وبالحكايات التي تنسـال إلـى أعمـاقي وأتلقاهـا

بطفولية. كنت أسلم نفسي إليها.. أثرثر على غير عادتي بكل ما يعن لي. أغضب كالمجانين وأرق كالملائكة. أضع رأسي أسفل بطنها مستكينًا مستسلمًا لدغاغات أناملها ومنتشيًا بعبق جسدها. وعندما تسترخي هي.. أقبل إبطها امتنانًا وأداعب أذنيها بلساني وأقبل جسدها كاملاً، قبل أن أضع قدميها على صدري العاري لأدفئهما. كم كان وجودها عذبًا.. وكم أفتقد كل ما كان بيننا. ليتها كانت أعنف قليلاً في تعبيرها عن حبها ورغبات جسدها. ربما لكان في إمكانها أن تكبح جماح الطفل العابث في أعماقي، هذا الذي كسر بيديه ما لم يعرف قيمته أبدًا لأجل أن يلهو بألعاب صغيرة أراد بها أن يكتشف العالم! دون أن يعي أنه قد أضاع، وببلاهة شديدة، ما لا يمكن تعويضه.. وأنه فقد إلى الأبد لا يمكن أن يعود.

تجاوزت كل هؤلاء الذين رأيتهم قبل دخولي إلى «سيدة الكهف». جالسين ما زالوا كما تركتهم يتأوهون ويتـألمون. سرت في طريق معاكس. أصبح الدرب خاليًا بعد لحظـات وخفتت الأصوات تدريجيا. سمعت صوت وشيش يأتي مـن مكان قريب غير أنني لم أستطع تحديده. قلت إنهـا البحيـرة التي أبحث عنها. صرخت فزعًا عندما انتشلتني يد من فتحة جانبية في الجدار المجاور لتجذبني بقوة إلى الداخل.

رغم المفاجأة شعرت بخجل شديد من صراخي وفزعي. ساعدني الظلام الدامس على تجاوزه بسـرعة. وبالتـدريج عاودت الرؤية بصعوبة بسبب العشى الليلي الذي أعانيه.

يا ساااتر يا رب.. إيه ده؟ هكذا هتفت لنفسـي عنـدما استوضحت ملامح السيدة التي اكتشفت أنها أدخلتني إلى هذه الزاوية من فرط دمامتها. انتشرت التجاعيد في سائر الوجـه وبدت عيناها بلا جفون، أما شفتها السفلى فكان لونها شـاحبًا

وأقرب إلى البياض، وكأنها تعرضت للاحتراق، فيما تلـون طرفا فمها بلون بني داكن.

سألتني: هل تبحث عني؟

جاءني صوتها محشرجًا ذا نبرة غليظة. أسقط في يدي ولم أعرف ما الذي ينبغي أن أقوله لها.

- ولماذا تتصورين أنني أبحث عنك؟

- النجوم..

- النجوم؟!

- نعم.. النجوم وصفت لي رسمك.. وقالـت لـي إنـك ستأتي.

تحاشيت النظر إليها وأنا أسألها:

النجوم قالت إنني سأحضر إلى هنا بحثًا عنك؟

نعم.. أنت لا تصدقني.. ولا تستطيع حتـى أن تنظـر إلي.. ولكن احترس فهذا هو الاختبار.. ليسـت هـذه هـي صورتي الحقيقية.. لكنني أخطأت خطـأ كبيـرًا وعوقبـت وعندما حلمت بالنجوم، أخبروني عن هذا الكهف وقالوا إنـه سيكون فرصتي الأخيرة في التطهر من إثمي. وعودة وجهي إلى صورته الأولى.

كنت أتمنى ألا أسمعها تقول شيئًا عن ممارسة الحـب..
إلا أنها استكملت قائلة:
- وهذا التحول لن يحدث قبل أن نمارس أنـا وحبيبـي الحب تحت ضوء القمر.
هتفت لنفسي (يا سلاااام).
قلت لها مبتسمًا:
- أنتم في هذا الكهف تحتـاجون لأرنولـد شـوازنجر أو شمشون!
نظرت إلي ببلاهة.. ثم ركزت نظرها علي وهي تقول:
- لا تشوش عقلي بما لا أستطيع فهمه. اسـمع قصـتي أولاً.. وسأترك الحكم لك في نهاية الأمر.
تناهى إلي سمعي صوت خرير المياه مـرة أخـرى.. فشعرت بالتملل رغبة في التحرك باتجاه البحيـرة.. لكنـي خشيت أن تكون هذه الماثلة أمامي اختبارًا حقيقيا قـد يعنـي خسرانه فقدان كل شيء.
قلت لها بنفاد صبر: تفضلي..
بدأت حكايتها وهي تصور جمالها القديم الـذي كانـت تحسدها عليه كل صاحباتها، وكنت أتحاشى النظر إليها وأنـا

استدعي سيدة الكهف إلى مخيلتي وأقارن بينهما مندهشًا.. كانت السيدة المدهشة الجمال وهذه السيدة الدميمة كلتاهما تعانيان وتتألمان.. فمن الذي لا يعاني إذن؟!

- .. ولكنني لم أستجيب لإغراءات الرجال وغزلهم. وإنما كان هناك شخص واحد فقط هو الذي استجبت له.. وقد كان لسوء الحظ من محارمي، ولكني كنت أحبه. وأستمتع بما يفعله معي. شاهدونا معًا ذات يوم. أوسعونا ضربًا. علقه أبي من قدميه ليومين كاملين.. وعندما حلوا وثاقة كان قد فقد عقله وسار في الطرقات يهذى كالمجذوب. أما أنا فقد وضعوني في إحدى غرف الدار كالمسجونات لا أرى النور. فقط تأتي أمي لتضع الطعام. وتأتي إحدى أخواتي لتذهب بي إلى الخلاء دون أن تتكلم معي كلمة واحدة. ومرت الأيام هكذا مُرّة وبائسة.

في النهاية أخرجوني من زنزانتي وقالوا لي إنهم سيزوجونني، ولم أر زوجي هذا إلا في ليلة الزواج. فوجئت بقزم دميم أمامي يحدق بي والشهوة تتقافز من نظرة عينيه الزائغتين قبل أن ينقض علي بوحشية. تعاركنا طول الليل.

في النهاية خارت قواي. خلع عني ثيابي وألقى بنفسه فوقي. لكنه لم يفعل شيئًا في نهاية الأمر. وهكذا كان الأمر يتكرر كل ليلة، وكنت أصاب بحالة من التشنج بسبب رفضي له جعلته يقضي لذته بعيدًا عني.

اكتشفت بعد ذلك أنه يحب الأولاد وأنه لا يستطيع الممارسة مع الإناث، وفوجئت به يحضر بعض المخنثين إلى بيتي ويمارس كل شيء أمامي وهو يتقافز بهيئته المنفرة مهتاجًا ومستثارًا.

كنت أعرف أنني أعاقب على جرمي الفادح. لذلك حاولت تقبل الأمر في البداية.. ولكنني بمرور الوقت وزيادة وحشيته وممارسته الشاذة وكثرة تفكيري في ذلك الذي يطوف في الشوارع والطرقات وهو يهتف باسمي فإنني بدأت أتعرض لنوبات اكتئاب وصلت إلى ذروتها في الليلة التي عرفت فيها أنهم قتلوه درءًا للفضيحة. وهكذا أشعلت النار في نفسي. ولا أعرف كيف أنقذوني أو أين. غير أنني ظللت أهذي طوال أيام حتى استعدت عافيتي بالتدريج ولكن بهذا الوجه الذي تراه. وبعدها تركني ولم يعد يتعرض لي وأغلق

إحدى حجرات المنزل واستدعى سيدة كانت تسكن بجوارنـا للاعتناء بي ما أمكنها.

وبدأت أهرب بالنوم، وأحلم بشخص له مثل مواصفاتك. بل هو أنت تحديدًا. يدعوني للحضور إلى هذا الكهف للتطهر والخلاص. وفشلت عدة محاولات للهرب. لكنني في النهايـة نجحت في الخروج في أثناء وجوده مع أحد هؤلاء المخنثين. وسرت طويلاً حتى وصلت إلى هنا.

تمنيت أن أستمع إلى أية إشارة مـن الرجـل الفراشـة أو «الصلات » أو أي أحد.. ولكن دون جدوى. قلـت غيـر معقول، هل يمكنني ممارسة ما منعته على نفسي مع سـيدة الكهف لفعله مع هذه السيدة؟!

قلت لها: ولكن النجوم أخبرتني بأنني سأجد ما أبحـث عنه عند البحيرة الموجودة داخل هذا الكهف.

فهتفت: هذا صحيح. فالبحيرة تقع فـي عمـق الكهـف وهناك توجد كوة وحيدة تسمح لأشعة القمـر بالنفـاذ.. إذن فالنبوءة حقيقية.

أسقط في يدي مرة أخرى ولم أعـرف مـاذا أقـول.. حاولت أن أهدئ نفسي بضمان العثور على البحيرة.

وعادت تقول بابتهاج واضح: أنت محظوظ.. فـالطريق إلى البحيرة طويل.. خاصة أنها تقع في أعلى مناطق الكهف وعلينا اجتياز سبعة مستويات. وقليلون جدا هم الذين يعرفون منافذ الصعود.. ولكن اطمأن فأنا واحدة منهم.. تعالَ معي.

- ١٠ -

اقتربت من محطة الأتوبيسات أسفل التل الذي يستقر بيت الشباب في أعلاه. أسرعت لأسأل عن الأتوبيس المتوجه إلى «دهب» فأخبرني أحد السائقين بأن موعده بعد نصف ساعة. قلت له:

- عاوز تذكرتين.

- مافيش حجز للميعاد ده، ممكن تقطع التذاكر في الأتوبيس.

- شكرته. تطلعت حولي حتى لمحتها من بعيد ترتدي قميصًا أبيض «وشورت» ضيق بنفس اللون.

وابتسمت لها وأنا أتحرك باتجاهها. عندما اقتربت راحت تحك كفيها ببعضهما دلالة على إحساسها بالبرودة وهي تردد اسمي ثم أردفت:

- صباح الخير.. اتأخرت عليك؟

- صباح الفل. لا. أبدًا.

تبينت السوتيان الأسود الذي يظهر من خلال قميصـها وأنا أقول:

- قدامنا نصف ساعة.. نعمل إيه؟

- نشرب قهوة؟

- فكرة مش بطالة.

توجهنا صوب المقهى المجاور لنا والـذي تنـاثر فـي أنحائه مجموعة من الأجانب الذين بدوا وسط أكوام حقـائبهم أنهم ينتظرون أي حافلة لاستكمال رحلتهم في سيناء. طلبنـا القهوة من الجرسون.

قلت:

- صاحبتك أحلام دي غريبه شوية.

- .. فيه ناس كتير بيقولوا كده. بس طيبه جدا وا .

- شربت إمبارح كتير. واضح إنها مش متعـودة علـى الشرب.

صمتت لوهلة وكأنها تفكر في شيء ما ثم قالت:

- أيوه.. يعني.. أصل عندها شوية مشاكل.

قالت ذلك وأطرقت وهي تنظر أمامها واجمـة بعـض الشيء. تسللت إحدى يديها تلتقط سيجارة من علبة سجائرها،

أسرعت بإشعالها لها وأنا أتأمل عينيها اللتين راقتا لي تمامًا؛ ربما لأنهما بدتا شديدتي الألفة بما تعلق بهما من آثار النوم.

اقتربت ثلاث فتيات شقراوات من مدخل المقهى، قامت «بتول» لترحب بهن في حماس. عرفتني إليهن قبل أن تنخرط معهن في حوار ضاحك بالفرنسية. ارتدت إحداهن «ترايننج سوت» أسود رسمت على واجهته تفاحة كبيرة بلون البنفسج. وقصت شعرها الطويل على شكل ذيل حصان، بينما ارتدت الأخريتان «شورت» و«تي شيرت». وكانت إحداهما لها ملامح متناسقة جميلة ولعينيها لون أزرق رائق بدا مدهشًا من خلف النظارة التي خلعتها للحظات وهي تمسحها بمنديل ورقي أبيض.

أحضر القهوة نادل قصير القامة شديد التجهم.. وضع القدحين أمامي. صب القهوة بسرعة واستدار متوجهًا إلى الداخل بنفس الإيقاع بينما كانت بتول تودع صديقاتها اللواتي ابتسمن لي محييات قبل أن يتجهن إلى داخل المقهى.

سألتها فور جلوسها:

- فرنساويات؟

- أيوه.. اتعرفت عليهن في القاهرة.. رايحين سانت كاترين.

- هما جايين لوحدهم؟

ابتلعت أول رشفة من القهوة وهي تومئ برأسها قبل أن تزوم بالإيجاب.

شعرت بالطرب واندهشت للنشوة التي ثارت بروحي. مرت على خاطري مشاهد التجمع أمام الأتوبيس قبل الرحلات أيام الجامعة.

«..الفتى وفتاته في رحلة العودة الليلية يجلسان متجاورين على عكس رحلة الذهاب التي كانا يتجاهلان بعضهما البعض خلالها عن عمد. ويتواطأ الجميع معهما دون اتفاق بالانضمام إلى جماعة الغناء والرقص في الركن الصاخب للأتوبيس، يبدآن حوارا صامتًا بالكفين المغطيين بجاكيت الفتى تقوم الأنامل بأدوار تتعاقب بين التدليل والحنان والتشكي والعتاب قبل أن تتشابك في تشبث حميم كأنما تعلن عناقًا بدأ لتوه.. وتحفز الجسدان لعناق مشابه..».

تأملت ما آل إليه حالنا أنا و«هند».. ابتسمت بسخرية، ثم إنني رحت أطرد من مخيلتي مشهد الرجل غريب الأطوار السمج الذي أثارني بضحكاته على هذا المقهى؛ والذي أطبقت صورته على مخيلتي فجأة بدون سبب واضح فقلت لبتول:

- إمبارح كنت مشمشة خالص.

- إيه مشمشة دي شتيمة؟

- شتيمة إيه؟ لأ.. مشمشة يعني.. مشمشة.

- مشمشة.. وا مش بطال.. إنت كمان مشمش خالص.

ضحكت وأنا أعيد الكلمة التي خرجت مع الضحكة ممدوة بعض الشيء:

- مشمش؟

- أيوه.. بالذات وإحنا بنرقص.

حدقت بعينيها وأنا أسأل:

- اشمعنى؟

- يعني.. كنت.. مش عارفة. أنا كنت مبسوطة واحنا بنرقص. بس كنت خايفة إن دمي يكون تقيل.

- لا.. لا.. بالعكس.. سهرة إمبارح دي بيني وبينك كانت عاملة. زي حقنة البنج.

أغرقت في الضحك ثم قالت وكأنها تذكرت شيئًا فجأة:

- إيه ده.. الساعة معاك كام؟

نظرت إلى الساعة وأنا أقوم قائلاً:

- يااااه.. يا دوب نلحق.

عندما وصلنا إلى شاطئ «عسلة» هتفت بتول: مدهش. إلى اليمين استقر مبنى صغير أبيض اللون يتسـع لغـرفتين بالكاد علقت على واجهته لوحة سوداء كتـب عليهـا بخـط أبيض «شرطة عسلة». تمتد من بعده الرمال بامتداد الشاطئ على شكل قوس باتجاه اليمين فيما تناثرت طوليـا أشـجار النخيل التي أضفت على الشاطئ سحرًا خاصًا.

على الجانب الآخر انتشرت مجموعـة مـن المقـاهي والكافيتريات والمحلات والبازارات التي تختص ببيع التحف والهدايا للسائحين، الـذين انتشـروا مسـتلقين ومعرضـين أجسادهم للشمس فوق بعض الحصر التي فرشت في مواجهة المقاهي.

توقفنا أمام مقهى خفّ الزحام عنه قلـيلاً. بـدا شـديد الاتساع، وقسمت مساحته الداخلية إلى عدة جلسات مشـابهة لمجالس البدو، تتوسط كل منها صينية نحاسية كبيرة، وحولها

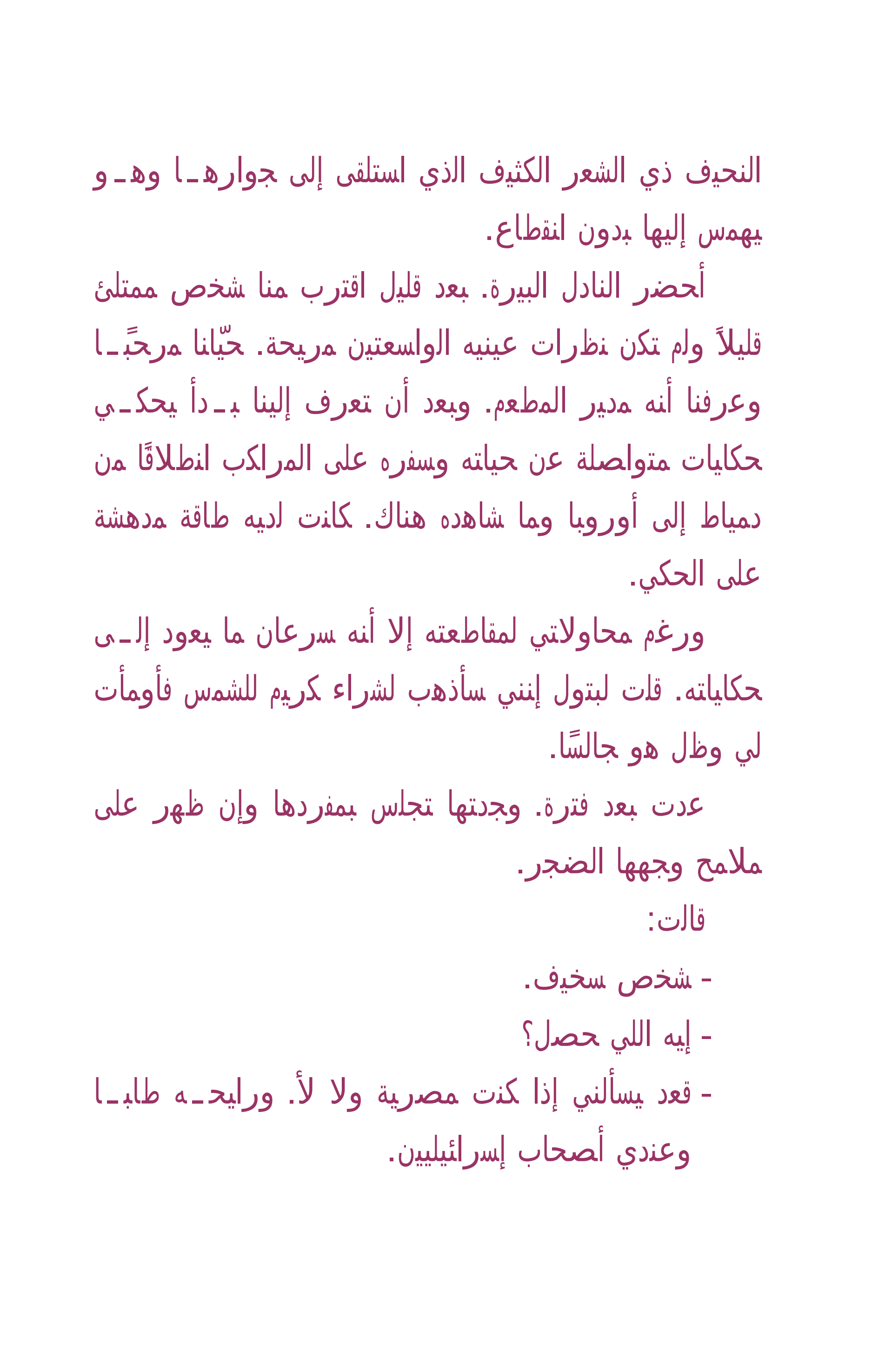
تتراص بعض المخدات و«الشلت» بألوان زاهية على أرض المقهى المغطاة بالحصير.

اخترنا أحد الأركان البعيدة من المدخل. بجوارنا جلس بعض الشباب يتصايحون في صخب وقد انقسموا إلى مجموعات؛ وبعضهم يلعب «الطاولة» بينما راح فريق آخر منهم يتجاذبون الحديث مع مجموعة من الشباب والفتيات الذي بدوا من طريقة نطقهم للإنجليزية وأجسادهم الضخمة ألمانًا، أو هكذا تصورت.

لم نستطع المكوث طويلاً في المقهى بسبب الضوضاء. تجرعنا زجاجتي «بيبسي» بسرعة وخرجنا إلى الشاطئ. كانت الشمس قد اشتدت قليلاً. اقترحت على بتول أن نسبح قليلاً ولم تمانع. خلعت «التي شيرت» الذي كانت ترتديه، واكتشف أنها ترتدي مايوه بيكيني أسود وليس «سوتيان» كما اعتقدت. تركنا ثيابنا على الحصيرة المفروشة بجوار الشاطئ. وعندما وصلنا إلى المياه وجدناها شديدة البرودة. وكانت الرمال في أول الشاطئ مغطاة بحصى غليظ وجدنا صعوبة كبيرة في أن نسير عليه، وبدأت بتول في التأوه بسبب الجرح في قدمها. اقترحت عليها أن نخرج.. قالت إن

مياه البحر ستكون مفيدة للجرح. سبحت بعيدًا عنها، وعندما عدت وجدتها مستلقية على ظهرها وكان جسدها يلتمع بفعل انعكاس الشمس عليه. وفور اقترابي منها قالت إنها لم تعد تحتمل أكثر من ذلك فخرجنا وتوجهنا إلى المقهى للاغتسال. عندما انتهينا قررنا أن نتمشى قليلاً. في الثلث الأخير من الشاطئ تقريبًا وجدنا مجموعة من المقاعد والطاولات البلاستيكية موضوعة بغير نظام أسفل مجموعة متلاصقة من أشجار النخيل.

جلسنا إلى إحدى الطاولات. حضر أحد الجرسونات إلينا. طلبنا بيره. مسحت بتول على شعرها المبتل قبل أن تطلب مني سيجارة. أشعلتها وقدمتها لها. على رمال الشاطئ بجوارنا تمددت فتاة ترتدي مايوه «بكيني» له ألوان تراوحت بين الروز والأرجوان والأخضر. أخفت عينيها بنظارة شمس سوداء دائرية. ورغم أن ملامحها أوشت بأنها أجنبية إلا أن جسدها الفارع الممتلئ بدا أقرب إلى أجساد المصريات؛ فلم يكن خصرها نحيلاً وكانت أردافها كبيرة نسبيا وهي تتمدد. ثنت إحدى ساقيها وأبقت الأخرى ممدودة، وهي تداعب بأنامل يدها اليمنى أسفل بطنها بينما تستمع إلى رفيقها



النحيف ذي الشعر الكثيف الذي استلقى إلى جوارهـا وهـو يهمس إليها بدون انقطاع.

أحضر النادل البيرة. بعد قليل اقترب منا شخص ممتلئ قليلاً ولم تكن نظرات عينيه الواسعتين مريحة. حيّانا مرحبًـا وعرفنا أنه مدير المطعم. وبعد أن تعرف إلينا بـدأ يحكـي حكايات متواصلة عن حياته وسفره على المراكب انطلاقًا من دمياط إلى أوروبا وما شاهده هناك. كانت لديه طاقة مدهشة على الحكي.

ورغم محاولاتي لمقاطعته إلا أنه سرعان ما يعود إلـى حكاياته. قلت لبتول إنني سأذهب لشراء كريم للشمس فأومأت لي وظل هو جالسًا.

عدت بعد فترة. وجدتها تجلس بمفردها وإن ظهر على ملامح وجهها الضجر.

قالت:

- شخص سخيف.

- إيه اللي حصل؟

- قعد يسألني إذا كنت مصرية ولا لأ. ورايحـه طابـا وعندي أصحاب إسرائيليين.

- إيه الرخامه دي.. أنا ههزأ لك أمه دلوقت.

- لا.. لا مافيش داعي أنا قلت له كلام سخيف. لأنه بعد كده قعد يسألني إذا كنا هنبات هنا ولا لأ.. وأنه عنده مكان لينا. وسألني إذا كنا عاوزين أي حاجة.

- حاجة إيه يعني؟

- مش عارفة.. بيتهيألي قصده على الحشيش.

- أما سخيف.. طيب ماتضايقيش نفسك. صمتت للحظة قبل أن أسألها ضاحكًا:

- بس انتِ فعلاً مش عاوزه حشيش؟

- ضحكت وهي تقوم وتدفعني قائلة:

ياللا نمشي من هنا.

عاودنا السير على الشاطئ. سألتني عن أسباب مجيئي إلى «شرم الشيخ». وبدون تفكير وجدت نفسي أحدثها عن «نورا». حكيت لها قصتي معها كاملة. وعندما انتهيت سألتني:

- ولسه بتحبها؟

- مش عارف وا يا بتول. أنا كنت طول عمري قبل ما أعرفها عنيد جدا. وباقدر أتحكم في مشاعري طول

الوقت. لكن مش عارف إيه اللي حصل لـي معاهـا. يمكن لأنها قدمت لي صورة لطفلة متمردة وكشفت لي عن ضعفها. وعشان كده ما قدرتش آخذ موقف منهـا أبدًا. ما قدرتش ألعب معهـا لعبـة الرجـل والسـت التقليدية. كنت واقف عند لحظة الطفولة والضعف اللي اكتشفتها من خلال العلاقة الخاصة اللي كانـت فيهـا بتبقى زي السكرانة وتكشف ضـعفها لآخـر مـدى. وعشان كده فضلت ألتمس لها الأعـذار حتـى بعـد خيانتها وزواجها. مش عارف.

ثم إنني أطرقت للحظة قبل أن أقول:

- ويمكن يا بتول لأنها مش شبه ماما أبدًا.

- إزاي؟! مش فاهمه.

التزمت الصمت لفترة طويلة قبل أن أقول:

.. أنا كنت قبل نورا أعرف واحدة وكان بينـا علاقـة طويلة، وماكانش فيها أي مشاكل. ومافيش حد في الدنيا كان فاهمني زيها. بس قررت إني أسيبها لأنـي حسـيت إنهـا مالهاش أي طموحات غير الزواج وتكوين بيت. وفي لحظة ما واحدة صاحبتنا قالت لها قدامي أنت ما تنفعيش تكوني إلا

أم قررت أنهي العلاقة في نفس اليوم. يمكن أنا حبيت «نورا» لأنها ما تنفعش تكون أم أبدًا. مجنونة. متوترة. كل ساعة بحال. مهمومة بنفسها. مش عارف.

حل الصمت بيننا لوهلة قبل أن تبدأ «بتول» بالحكي عن علاقتين مرت بهما كان بطل الأولى شبيهًا لأبيها؛ سلطوي إلى أقصى حد بينما الآخر على النقيض تمامًا. ثم أضافت:

- أنا فعلاً محتارة.. مش عارفة أنا عاوزه إيه. أحيانًا باحس إني محتاجة لطبيب نفسي. أنا مش قادرة أعرف لوحدي. أحيانًا بافكر إني مش قادرة أحب. رغم إني رومانسية جدا..

ثم صمتت للحظة قبل أن تسألني مبتسمة:

- إنتَ مش ملاحظ حاجة؟

- إيه هي؟

- إنت عندك عقدة «أوديب» وأنا عندي عقدة «إلكترا».

وأغرقنا في الضحك.

«.. الولد الصغير الجميل يجلس ملتصقًا بالأم التي يحبها كثيرا. عندما يحضر الأب ويسلط نظراته إليه يبتعد الولد متسللاً وذليلاً ومقررا ألا يعود مرة أخرى إلى أحضان

هذه السيدة ويفقد القدرة على التعبير عن مشاعره لاحقًا لها أو لغيرها أولئك اللواتي يتوق إليهن كثيرا ويصادقهن رغم خجله بحثًا عن أم جميلة لم تمتلك حنانها إلا واحـدة كـان عليه بالضرورة أن ينهي علاقته بها..».

أخبرت بتول بما دار في ذهني فابتسمت وهي تسألني:

- كان بيبرقلاك؟

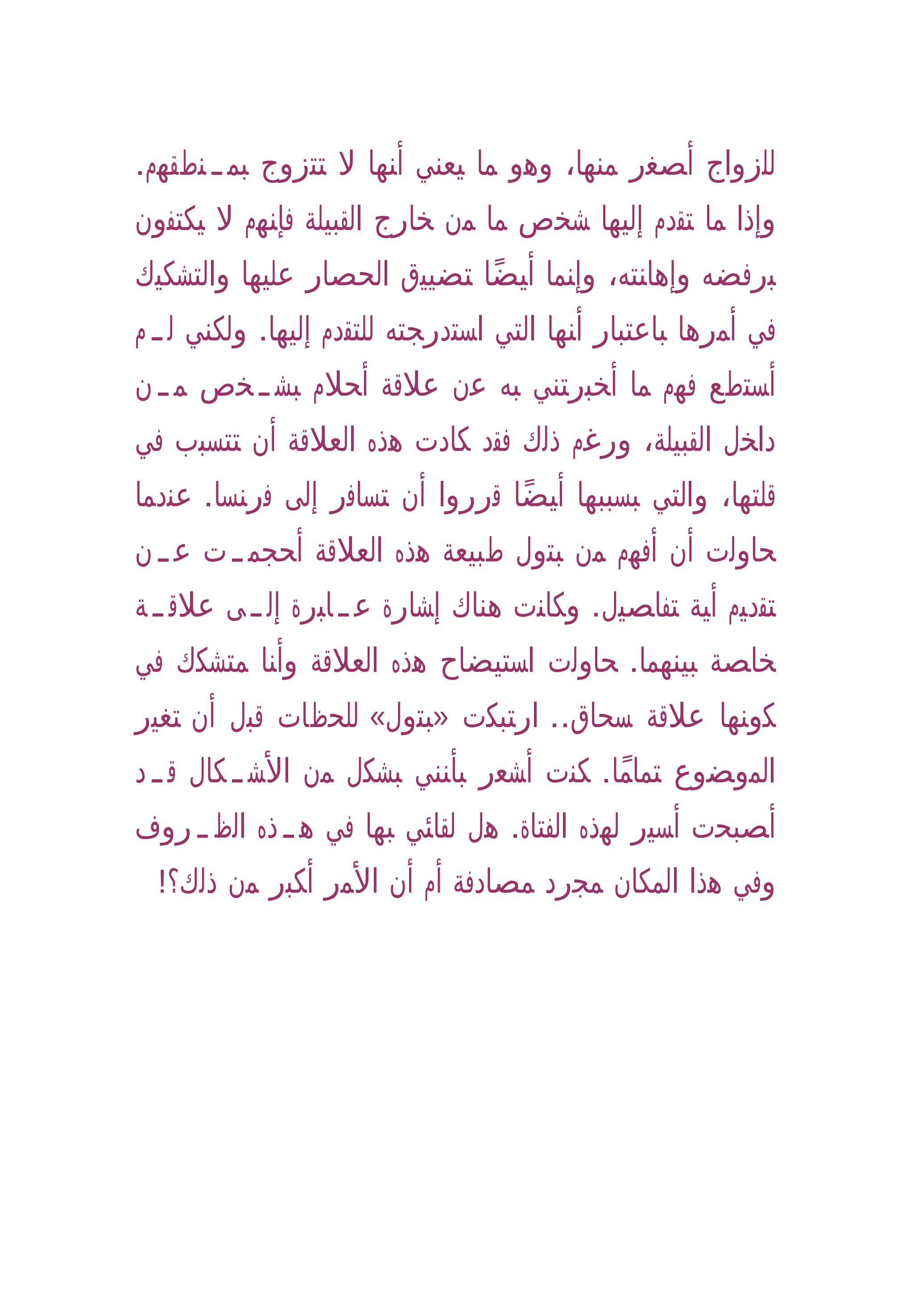
- أيوه.

خرجت الكلمة مني بطفولية شديدة حتى أنها أغرقت في الضحك، فضحكت بدوري.

* * *

في طريق العودة من «دهب» إلـى «شـرم الشـيخ» استسلمنا للصمت واستغرقت «بتول» في النوم بعد دقائق من تحرك الأتوبيس.

كان خيالي مشغولاً بصورتها وبكل ما قالته لـي عـن حياتها ومشاكلها. ثم بما أخبرتني به عن «أحـلام» بشـكل خاص، رغم أنها حكت ذلك بشكل مقتضب. قالت إن قبيلتها لا تسمح لفتياتها بالزواج من رجال لا ينتمون للقبيلة. عندما وصلت هي إلى سن الزواج كانت أعمار الشباب المـؤهلين



للزواج أصغر منها، وهو ما يعني أنها لا تتزوج بمنطقهم. وإذا ما تقدم إليها شخص ما من خارج القبيلة فإنهم لا يكتفون برفضه وإهانته، وإنما أيضًا تضييق الحصار عليها والتشكيك في أمرها باعتبار أنها التي استدرجته للتقدم إليها. ولكني لم أستطع فهم ما أخبرتني به عن علاقة أحلام بشخص من داخل القبيلة، ورغم ذلك فقد كادت هذه العلاقة أن تتسبب في قلتها، والتي بسببها أيضًا قرروا أن تسافر إلى فرنسا. عندما حاولت أن أفهم من بتول طبيعة هذه العلاقة أحجمت عن تقديم أية تفاصيل. وكانت هناك إشارة عابرة إلى علاقة خاصة بينهما. حاولت استيضاح هذه العلاقة وأنا متشكك في كونها علاقة سحاق.. ارتبكت «بتول» للحظات قبل أن تغير الموضوع تمامًا. كنت أشعر بأنني بشكل من الأشكال قد أصبحت أسير لهذه الفتاة. هل لقائي بها في هذه الظروف وفي هذا المكان مجرد مصادفة أم أن الأمر أكبر من ذلك؟!

- ١١ -

أدهشتني السيدة الدميمة بمعرفتها التامة بدروب الكهف ودهاليزه. أتتبعها وقد زال عني كل إحساسي بالتعب، رغم حركتها السريعة وهي تنحني لتمر من إحدى الكوات أو أثناء صعودها برشاقة على درج حجري، أو ركضها في ممر طويل، أو انحرافها المفاجئ إلى أحد الأبواب الجانبية. وبعدها تتوقف للحظة لتتأكد من أنني لم أفقد خط السير قبل أن تتابع الحركة.

خلال الطريق كانت المشاهد تمر علينا بسرعة.. رجال وسيدات يجلسون صامتين على أرض الكهف. نساء عاريات يركضن فزعًا، وخلفهن رجال عرايا ذوو لحى طويلة تصل حتى عوراتهم. وفتيات لهن جمال الحور يقفن في أركان الكهف وحيدات وهن يبكين بحرقة. ورجال يظلل الحزن وجوههم. رأيت السيدة المتحجرة «محبوبة» وهي محاطة بوجوه لسيدات وفتيات يمررن كفوفهن عليها ويرددن ترنيمات خاصة وتعلو وجههن ملامح الإجلال. ومررنا على

أسرى سيدة الجبل. وبجوار باب مأواها المهيب كانت الألحان الشبقية تتسلل من الداخل. وكلما حاولت أن أخفف من سرعة خطواتي قليلاً تحثني على الهرولة قائلة إننا قد تأخرنا كثيرًا وإننا في سباق مع الزمن.

بمرور الوقت راودني شعور مداهم بالإعياء. حاولت أن أجعلها تخفف قليلاً من سرعتها غير أنها كانت تؤكد لي لاهثة بأننا سنتعب كثيرًا وعلينا الاحتمال.

تناهى إلى سمعي صوت خرير المياه فرقص قلبي إذ أدركت أننا اقتربنا من البحيرة. خشيت أن تطلب مني ممارسة الحب. فكرت في الهروب منها خاصة أنني قد وصلت تقريبًا إلى البحيرة. وهكذا بدأت أتعمد التأخر عنها.. ثم إنني اختبأت خلف إحدى الصخور لفترة، وانتظرت حتى رأيتها تعود بحثًا عني وهي تنادي علي في جزع، وتسللت بعدها مستكملاً الطريق إلى البحيرة وحدي.

كانت البحيرة تتوسط باحة حجرية كبيرة انعكس عليها طيف ضوء القمر. نظرت إلى أعلى فاكتشفت أن البحيرة تقع تحت ما يشبه فوهة بركان. وبدا المشهد متلألئًا بالنجوم.

سمعت أصوات همس آدمي لم أستطع تحديـد مكانهـا بسهولة. ارتفع الصوت تدريجيا واكتشفت أنه حوار بين رجل وفتاة احتد صوتها فجأة وهي تقول:

- لن أستطيع. صدقتك كثيرًا من قبل.. واستجبت لكـل مطالبك وأعطيتك كل شيء.. حتى جسدي.. لم أبخل به عليك. ولكنك لم تراعِ شـيئًا.. ازداد غـرورك.. ورحت تركض وراء امرأة أخرى. اذهب إليهـا إذن أو إلى غيرها. أنا لست جارية من جواريك.

- أرجوكِ. امنحيني فرصة أخيرة.

- أعطيتك كل الفرص. أما الآن.. فأنا آسـفة. عرفـت آلاما لا تطاق بسبب غرورك وتفاهتك وبعدها عانيت الوحدة القاتلة. فعلت كل شيء لأنسـى خيانتـك دون جدوى ثم إنني لست الإنسانة التي عرفتها مـن قبـل. ربما أنت لا تعرف مدى التغيير الذي تلحقـه جـراح القلب. هذا القلب لم يعد يحوي إلا خرابًـا واسـتعدادًا بلا حدود لتدمير أي شخص ولتدمير نفسي أولاً.

- أرجوك.. حاولي أن تفهميني. ما فعلته حدث في لحظة ضعف. عانيت بعدها طويلاً.. واستغرق الأمر مني جهدًا كبيرًا للبحث عنك حتى وجدتك أخيرًا.

- وفر هذا الكلام من فضلك. فلست أنا التي تبحث عنها. ثم إننا تكلمنا من قبل كثيرًا. قلت لي يومًا إنني التي تسببت في خيانتك لي. كان هذا قاسيًا إلى حد غير محتمل. تريد أن تلعب دور الضحية والجلاد في وقت واحد. لا بأس. لم أمنع عنك حتى هذه الرغبة. اعتبرت نفسي المخطئة. وقررت أن أتحمل خطئي. كانت المحصلة هي هذه الخرابة.. إحساس كئيب بعدم الثقة بالنفس ولا بأي أحد، وقلب متعب حتى الإنهاك، وممتلئ بالألم والحسرة التي تروعني كلما شاهدت رجل وامرأة متحابين. لن أستطيع أن أتصالح مع العالم ومع نفسي بعد الآن. على الأقل ليس من خلالك.. أرجوك.. اذهب الآن.

بدأت في البكاء الذي تحول بالتدريج إلى ما يشبه حالة هيستيرية تصاعدت عندما اقترب منها وهو يربت عليها وبدأت تضربه بكلتا يديها بعنف وهي تهدده بإلقاء نفسها في

البحيرة إذا اقترب منها، وبدا عنادها قد بلغ مداه فما كان منه إلا أن انصرف مطأطئ الرأس.

بعد انصرافه انخرطت في بكاء صامت مرير بعد أن انكفأت على وجهها مسندة إياه على إحدى ذراعيها، غير أن بكاءها سرعان ما راح يعلو تدريجيا، ليتحول مرة أخرى إلى بكاء هيستيري مروع جعلني أقاوم غصة لاحقتني فجأة فيما راحت بين بكائها المرير تتساءل صارخة: أنا إيش سويت يا ربي؟ إيش سويت. أنا ما أستاهل كل ذا يا رب.. ما استاهل.

بعد مرور فترة بدأت تستعيد هدوءها تدريجيا حتى صمتت تمامًا. أحسست أنها نامت. هل من الممكن أن تكون هي الفتاة التي استدعتني إلى هذا الكهف في تلك الرؤيا / الحلم، وما الذي بإمكاني أن أفعله الآن؟ هل أوقظها.. وماذا سأقول لها؟ هل من الممكن أن تتعرف هي إليّ فتوفر علي كل هذا القلق.. ويبدو أنني استغرقت في تساؤلاتي وحيرتي حتى غلبني النعاس بدوري فاستغرقت في النوم.

* * *

استيقظت على صوت أنثوي مباغت. رأيتها تقف أمام البحيرة وهي تردد كلمات مبهمة وقد أولتني ظهرها بعد لحظات خلعت ثوبها الذي لم تكن ترتدي شيئًا تحته. كان لمشهد جسدها عليّ وقع السحر ليس فقط لتناسقه المدهش وانعكاس ضوء القمر عليه، وإنما بسبب رؤيتي لخلخال فضي مبرقش زينت به قدمها اليمنى. ألقت نفسها فجأة إلى البحيرة، وراحت تسبح بهدوء ذهابًا ومجيئًا. أو تغطس إلى أعماق البحيرة أحيانًا. وأخيرًا خرجت. أخذت تنفض ذراعيها وتمسح الماء جسدها، ثم أنها عقصت شعرها في محاولة لتجفيفه. رأيت وجهها للمرة الأولى. كان تمام كالقمر في استدارته بينما بدت عيناها السوداوان الضيقتان أشبه بعيون القطط، وتركت شعرها الأسود الحالك لينسدل خلف ظهرها بعدما جففته قدر ما استطاعت.

ارتفع صوت ترنيمات الكهف قليلاً وبدأت هي في الرقص على أنغامها. فبدت بطولها الفارع ورشاقتها أشبه بإحدى شخصيات الأساطير القديمة. وعندما انتهت من الرقص توقفت أمام البحيرة، وكأنها تخاطب ملائكة لا يراها أحد سواها:

- ها أنا ذي حرة تمامًا.. حرة من كل شيء.. من القيود ومن ثيابي ومن الحب ومن أي شيء. أما قلبي الـذي أذلني فسوف أدربه على القسوة ليصبح في صلابة هذه الأحجار. ربما أنني لن أحتمل هذه القسوة ولكن ذلـك سيكون أفضل من الهوان والألم الذي عانيتـه والـذي اغتسلت منه لتوي وللمرة الأخيرة. سأصـنع الجمـال للعالم، وسأجعل من نفسي مرآة للعاشقات يرين أنفسهن من خلالي.. سأكتفي بهذا. هذا وعـد أشـهدك عليـه يا بحيرة الحب. ويا قمر العاشقين. جربت حظي مـن العشق وكانت التجربة مريرة بما يكفي.

أسرعت بعد ذلك لترتدي ثوبها. توجهت إليها. فشـهقت منزعجة واتسعت عيناها الأليفتان غير أنها لم تقـل شـيئًا.. حاولت أن أذكرها بنفسي وبالحلم دون جدوى.

حكيت لها قصتي منذ دخـولي الكهـف وحاولـت أن أذكرها بالخلخال، فنظـرت إلـيّ نظـرة عتـاب صـارمة وانصرفت دون أن تنطق بشيء. ومرت أمامي فـي هـدوء مبتعدة كما طيف، وتركتني أقف مـذهولاً وقـد تضـاعف إحساسي بالوحدة فجأة حتى أوجعني قلبي من شدة كمدي.

ظهر لي الرجل الفراشة.. فنظرت إليه متسائلاً عما يحدث. فقال لي بنبرة لم تخلُ من عتاب:

- لماذا تركت سيدة النجوم وهربت منها إلى هنا؟
- مررت بتجارب مشابهة وخشيت أنها تستدرجني إلى خطأ.
- كان عليك أن تخلصها من سجن دمامتها وكان ذلك سيصل بك إلى البحيرة في الوقت المناسب.
- كيف؟

أخبرتك في البداية بأن عليك أن تتحلى بالصبر والروية، غير أنك أثبت هلوعك وقلة خبرتك بما فعلت. ولم تفهم.. أن كل شيء بميقات محسوب. وأن أي اختلال في المواقيت ستكون له عواقب وخيمة. والوقت غير المناسب هو أكبر عدو للعشاق. وها أنت بتعجلك فقدت فتاة البحيرة وفقدتك هي بدورها، وظلت الدميمة فيما تعانيه وربما سيستمر ذلك لأجل طويل.

- ١٢ -

خرجت عاريًا من الحمام دون أن أجفف نفسي، وبقيت واقفًا في الغرفة لوهلة. لم ينجح استحمامي للمرة الثالثة من إزالة إحساسي بالتوهج أو بتخفيف حدة الغضب والغيظ والضيق الذي يحاصرني ويشعرني بالاختناق. ارتديت ثيابي بسرعة وقررت التوجه إلى «البار» الذي يقع في أول الشاطئ.

توجهت إلى «البار» الخشبي الدائري يتوسط المكان وطلبت بيرة من «البار مان» رحت أتجرعها بسرعة. لمحت الفتاة الإفريقية التي شاهدتها أمس وهي تدخل من الباب بصحبة إحدى صديقاتها. كانت ترتدي «تي شيرت» أحمر وشورت جينز صديقتها. حييتها. اقتربت منها مبديًا رغبتي في أن أقدم لها شرابًا. ابتسمت وسألتني عن مكان جلوسي فأخبرتها. قامت معي وتوجهنا إلى البار. شاهدت الشاب الذي كان برفقتها أمس على الباب. يجول بعينيه في أرجاء المكان وعندما وقعت عيناه علينا اقتربت منها في هدوء. حياها

مبتسمًا فمالت على أذني وأخبرتني بأنها ستعود بعـد دقـائق فهززت لها رأسي.

طلبت «بيرتين» من البارمان محاولاً إخفاء ضيقي. بعد دقائق عادت وحدها وجلست بجواري. سألتني عـن اسـمي فأخبرتها وسألتها عن اسمها فقالت:

- «سوزان».
- من أين؟
- من أثيوبيا. وأنتَ؟
- أنا مصري.
- لو لم تكن في مصر لتصورت أنك لبناني.
- هل ذهبت إلى لبنان من قبل؟
- لا.. ولكني ذهبت إلى دول عربية أخرى ورأيت كثيرًا من اللبنانيين هناك.
- شعب لطيف.
- نعم.. جدا.. وأنتَ ماذا تعمل؟
- مصور فوتوغرافي. لكني كنت هنا في إجازة. وأنت؟
- أنا أيضًا في إجازة. أين صديقتك؟
- أي صديقة؟

- التي كانت ترافقك أمس.

- سافرت.

عندما انتهينا من شرب البيرة اقترحت عليها أن نغير المكان. قالت لا بأس.. أشرت إلى إحدى الطاولات في ركن بعيد مواجه للبحر. فأومأت موافقة وقالت إنها ستذهب إلى صديقتها قليلاً.

تأملت مياه البحر التي عكست صورة «بتول» على صفحتها وهي تبتسم ابتسامتها الجميلة. عادت «سوزان» بعد فترة وجلسنا صامتين لوهلة. أدار الـ «D. J» أغنية توني براكستون «UN BREAKE MY HEART».

سألتني سوزان: ألا تريد أن ترقص؟ فنهضت على الفور وأنا أهز رأسي بالإيجاب.

توجهنا إلى الرقعة المخصصة للرقص وشعرت أنني ثمل بعض الشيء. احتضنتها منتشيًا. عند المقطع الذي تقول كانت فيه براكستون « WITHOUT YOU I CANOT GO OOON كانت سوزان تصرخ بالمقطع ذاته وهي تضمني بقوة مما جعلني أضمها بقوة أشد حتى أنني رفعتها قليلاً عن الأرض. بانتهاء الأغنية عدنا إلى مكاننا. تجرعنا

رشفتين من قدحي البيرة الموضوعين. قالت سوزان إلي وهي تهمس:

- هل تريد أن تنام معي؟

- جدا..

- كم ستدفع؟

- كم تريدين؟

عرضت مبلغًا مبالغًا فيه فقالت لها:

- ليس لدي أكثر من ربع هذا المبلغ.

- ركزت عيناها في عيني قبل أن تقول بنبرة دلال شديدة.

- لو خيرتني لما طلبت منك شيئًا.. لكني أساعد أمي وأخواتي.

- أنا لا أكذب عليك. أنا فعلاً لا أملك إلا هذا المبلغ.

- نصف المبلغ حتى.. أرجوك.

- صدقيني لو معي ما طلبت ما ترددت.

صمتت للحظة قبل أن تسألني:

- هل لديك مكان؟

- أنا أقيم في غرفة صديقي.. ومن المحتمـل أن يعـود اليوم، سيكون من الأفضل لو لديك أنتِ مكان.

فكرت قليلاً.. ثم قالت:

- لا بأس. أختي تقيم معي بالغرفة. ولكننا سنجد طريقة.

انصرفنا وقد تأبط كل منا الآخر، وكنت أشـعر بـأنني ثمل تمامًا.. وحلقي جاف. أثناء خروجنا رأيت رفيقها ينظـر إليهـا بسـخرية وهـو يقـول: GOOD BYE MISS. JAMICA وأشارت هي إليه بأطراف أصابعها.

* * *

فتحت باب الغرفة بالمفتاح وتركتني بالخارج للحظـات ثم أشارت بالدخول. كانت الغرفة مقسمة إلـى ردهـة بهـا منضدة صغيرة و«كنبة» مفصولة بجدار عريض عن الغرفة الداخلية. أمسكت بيدي وهي تتجه إلـى الغرفـة الداخليـة. أضاءت النور. كان هناك سريران متقابلان وعلى أحـدهما وجدت فتاة سمراء نحيلة تنام في رداء نوم قصير. أيقظتهـا «سوزان» فأخذت تنظر إلي بدهشة. وبدأ حوار بلغة لم أفهم منها شيئًا.. أشارت إلي «سوزان» خلاله عدة مرات قبل أن تنظر إلي وتسألني عن المبلغ ناولتها فأعطته لأختهـا التـي

قامت وسارت في تثاقل وابتسمت لي وهـي تمـر أمـامي فاعتذرت لها عن إزعاجها. لم تلتفت لي. أخبرتني سـوزان بأنها لا تعرف الإنجليزية.

خلعت سوزان «التي شيرت» ثم «الشورت» كانت تلبس طاقمًا داخليا أسود بدا لي غير ملائم للون بشرتها السـمراء. خلعت السوتيان ثم انكفأت لتخلـع حـذائها فتهـدل نهـداها الصغيران. طلبت مني أن أخلع ثيابي ففعلت بسرعة. أطفأت النور، وذهبت إلى الفراش. عندما احتضـنتها بـدا جسـدها غلاميا. تحسست ظهرها وفخذيها. اكتشفت أن بشرتها ليست ناعمة كأنها خالية من الماء. وكان لجلدها الرطـب رائحـة لطيفة وكأنها عبقته بعطر كثيف. حاولت أن أتكشف مواقـع إثارتها بشفتي فبدت شديدة البرودة. وعندما خلعت سـروالها اكتشفت أنها حلقت شعر عانتهـا تمامًـا. تلمسـت موضـع خصوبتها. أدركت أنها مختونة. طلبت مني أن أخلع سروالي وبدت متعجلة. عندما اعتليتها تذكرت أختهـا وخشـيت أن تكون جالسة لمراقبتها. فنمت على ظهري وأنا أقول لها أنني أفضل الأمر هكذا. استفزتني هرولتها وهي تحاول الوصول

بي إلى الأورجازم، وباستمرار إلحاحها جذبتها من ذراعهـا حتى صار رأسها مواجهًا لرأسي وقلت لها هامسًا:

- قد تكون هذه الليلة هي عمر علاقتي بك.. ولا بأس أن تطول قليلاً.

هدأت تدريجيا وبدأت تهمس في أذني بكلمات مشـبوبة بغنج سافر، فبدت وكأنها تجتر ذكريات حميمة من علاقـات حقيقية سابقة.

عندما انتهينا أسرعت بارتداء قميص نوم وردي اللـون التقطته من على الأرض وإعادة ترتيب أشـيائها المبعثـرة. كنت أرغب في النوم ولكنني إزاء تعجلها السـخيف قمـت وارتديت ثيابي بسرعة. حاولت أن أشرح لها أنني لـم أكـن أحتاج أكثر من النـوم بـين نهـديها وأن أسـتمع لغنائهـا أو هدهدتها غير أنني استسخفت الفكـرة. أثنـاء خروجـي لاحظت أختها نائمة على الكنبة وقد ارتفع صوت غطيطهـا. اقتربت «سوزان» مني فشكرتها واعتذرت مرة أخرى عـن قلة المبلغ، ثم أودعت على جبينها قبلة خافتة. وخرجت.

* * *

كان الشاطئ خاليًا. والأفق البعيد بلونه الذي تراوح بين الأزرق الفاتح والرمادي يشير إلى اقتراب الفجـر. شـعرت بحزن موحش ثقيل. اقتربت من مياه الشاطئ وسرت بمحاذاة المياه بينما هواء الفجر الرطب يلفح وجهي فأسـرعت مـن خطواتي. استدعت ذاكرتي بتول التي سافرت فجـأة بعـدما تعلقت بها كغريق. كان رحيلها الغامض مثل صدمة. خاصة أن رد فعلها كان لطيفًا حينما نقلت لها مشاعري أمـس هنـا على هذا الشاطئ فما الذي حدث؟

«.. الفتى نفسه الذي كان غارقًا في حبه الأفلاطـوني الأول في رأس البر. يستيقظ في اليوم الموعـود مكتئبـا. يقضي نهاره مع أصدقائه كيفما اتفق يسكنه حزن مـوحش ثقيل. يحاول المساء يتنصل من مواعيـده معهـم ليركـب «الطفطف» من شارع ٨٩ وحتى شارع النيل. ويسير مـن هناك وحتى شارع ١٢ وقلبه يتقافز بين ضلوعه ويعرف أن فتاته لا تستطيع مغادرة العشة في يومها الأخير. يحوم في دوائر قريبة وبعيدة محاولاً التقاط صورة المعشوقة التي ما إن يلمحها حتى يرف قلبه. وقبل انتصاف الليل بقليل يجاس خائر القوى بجوار إحدى العشش المظلمة القريبة من مأوى

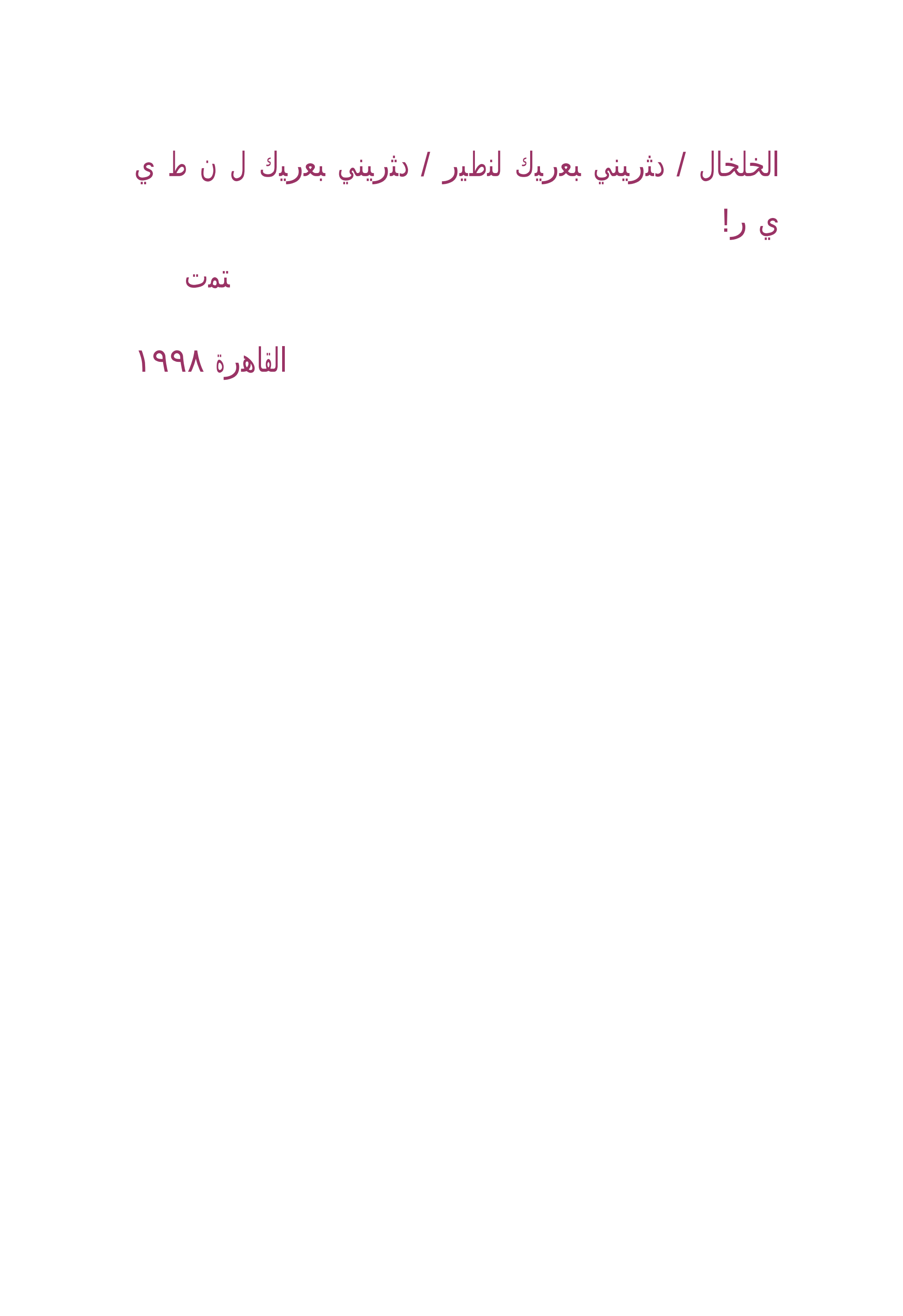
الحبيبة المقدس ويغرق قلبه عندما تبدأ الأنوار في الانطفاء تدريجيا فيعود وحده حزينًا سيرا على قدميه وهـو يقـبض بقلبه على طيف المحبوبة التي لن يراها لعام كامل قادم..».

- ١٣ -

مع اختفاء فتاة البحيرة أدركت أنه لم يعد لي أمل فـي شيء وأن هذه الرحلة الطويلة لن تسفر عن أي شيء. وبدأت أسير في هدوء باتجاه يخالف البحيـرة وأنـا أرقـب أزواج الفراشات التي تحلق حولي متحسرًا. لاحظت ضوءًا سـاطعًا يأتي من نهاية الطريق فعجلت من خطواتي قلـيلاً، تبينـت فجوة كبيرة في مواجهتي تفضي إلى خارج الكهف، نظـرت عبرها اكتشفت أنها تطل على هاوية ضبابية سحيقة. هل هذه هي النهاية؟ أهذا هو مصيري؟ تأملت حافة الكـوة أمـامي والأفكار تعصف بعقلي وبسرعة كبيرة، وراحـت مخيلتـي بدورها تدور بصور ومشاهد من أمـاكن متعـددة وزمـن مختلف. وتوقفت هذه العاصفة أخيرًا عند تفضيلي للمكـوث هنا على وجه التحديد.. تمامًا على الحافة ما بين الكهف بكل ما فيه من عوالم وأشخاص وأحلام وهواجس، وبين الهاويـة في الخارج. فهكذا كانت حياتي كلها.. على الحافة.. بلا يقين حقيقي. حافة الحب وحافة النجاح وحافة الأماكن التي كنـت

أعبر خلالها من غربة إلى أخرى كأنه لا مفر منها إلا إليها. جلست بجوار الحافة وأسندت رأسي للجدار واستسلمت مـرة أخرى لأفكاري ولعصف الذاكرة التي كانت تعبر بي خـلال الزمن والمكان فلا تعكس صورتي فيها عبر ما تعلق بها من أشخاص وأماكن وأزمنة إلا صورة الغريب. وهكذا استسلمت لأفكاري حتى غابت عن وعيي كل الأشياء. بعد فترة سمعت جلبة اختلطت بها أصوات ميزت منها تباعًا غنـاء «هنـد» الرقيق وبحة صوت «نورا» وضحكة «بتول» وهمس «سيدة الكهف» ونداء «الصات» ومناجاة فتاة البحيرة. ومـن بعيـد صوتًا له إيقاع رقيق وأليف ارتفع تدريجيا معلنًا عن اقتراب صاحبته بينما كانت الأصوات الأخرى تتلاشى تباعًا.. وكنت أهذي كمحموم:

نداءاتك يزركشها رنين الخلخال / قلبي يـرقص علـى إيقاع خلخالك / عيناكِ يا مليكتي تضيئان / ارفقـي بقلبـي الطفل فأنا لا أحتمل آهاتك / خمرية أنـتِ لا سـمراء إذن / قلبي يرقص على إيقاع خلخالك / أغرقتني بخمـر عينيـكِ فلا تبالي بهذياني / نداتك يزركشها رنين الخلخال / عينـاكِ تتسعان في مرآة عيني فتحتوياني / لا تبعدي ساقيك لأتحسس



الخلخال / دثريني بعريك لنطير / دثريني بعريك ل ن ط ي

ي ر!

تمت

القاهرة ١٩٩٨